بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 03 مايو 2016

صناعة أخبار أسباب النزول

بسّام الجمل
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

All rights reserved © 2016
جميع الحقوق محفوظة © 2016

صناعة أخبار أسباب النزول[1]

[1] نضع بين يديْ القارئ الفصل الثالث من الباب الثاني من كتاب **(أسباب النزول علماً من علوم القرآن)** لبسّام الجمل، مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2013م.

الملخص:

يندرج تناول المؤلِّف لهذا المبحث بعد النظر في أخبار أسباب النزول من جهتيْ رُوَاتها ومتونها. ولمّا كان جلّ رواة الأخبار من غير الصحابة الكبار، فإنّ ذلك وفّر لنا دليلاً على أنّ مادّة علم أسباب النزول وُجِدَت في المراحل التي أعقبتْ مرحلة الدعوة المحمّديّة.

وأمكن القول: إنّ نسبة مهمّة من الأخبار صنعها الرواة، وركّبوها على نصّ المصحف، مستغلّين سمة التعميم الغالب على خطابٍ لم يحتفِ بتفاصيل الأحداث وجزئيّاتها. وفعلاً، أحوجتْ هذه الملاحظة إلى تحديد القرائن اللغويّة القرآنيّة لصناعة الأخبار (مثل السؤال والاستفتاء، والأمر والنهي، والتمثيل والصور المجازيّة...)، ثمّ عيّن المؤلّف أهمّ خصائص الأخبار المصنوعة من قبيل: النزعة إلى التعميم، وغياب المرجع، والإسقاط التاريخي، والتنافر بين منطوق الآية ودلالة الخبر، والحبكة القصصيّة.

وبناءً على ما سبق، استنتج بسّام الجمل أنّ قسماً من مرويّات أسباب النزول قد اختلقه المفسّرون، وعلماء القرآن القدامى، ثمّ أسندوا روايته إلى شخصيّات مرموقة في الضمير الإسلامي حتّى يوفّروا له أسباب قبوله، وذيوعه، وانتشاره. وتتأكّد خطورة هذا الاستنتاج، حينما يُستحضر ما ثبت من أنّ عدد الآيات التي لها أسباب نزول معروفة لا تتجاوز عُشر آيات المصحف.

بيّنّا، في الفصل الأوّل من هذا الباب، أنّ أغلب رواة أسباب النزول كانوا من الجيل الإسلاميّ الثاني، والأجيال التي تلته. وهذا ما يحمل على الاعتقاد بأنّ مادّة أسباب النزول وُجدت لاحقاً بعد انتهاء مرحلة الوحي المحمّديّ بموت الرسول. ذلك أنّ كبار الصحابة لم يكونوا معنيّين بمعرفة أسباب نزول الآيات، بما أنّهم عاينوا ظروف النزول معاينةً مباشرة. وبذلك حدثت الأسباب في الواقع التاريخيّ، ثم نزل الوحي الموافق لها، بياناً لحكم، أو اعتراضاً على تصرُّف، أو قول، أو إثباتاً وتبريراً لسلوك.

وفي المقابل، إنّ التابعين، ومن تلاهم من المسلمين، سيقومون بقلب المسار الذي عرفه الصحابة؛ إذ سينظر التابعون في نصّ المصحف، ثمّ سيبحثون من وراء الآيات عن أسباب نزولها، مسترشدين، في ذلك، بما يمكن أن يرشح به النصّ من إشارات تاريخيّة[1]، وعلامات لغويّة، ركّبوا عليها أسباب نزول آيات عديدة.

لذلك وجّهنا عملنا، في هذا الفصل، إلى مبحثين أساسيين يتعقّب أوّلهما أهمّ القرائن اللغويّة القرآنيّة لصناعة أخبار أسباب النزول، ويرصد ثانيهما أبرز خصائص الأخبار المصنوعة.

I. القرائن اللغويّة القرآنيّة لصناعة الأخبار:

إنّ حاجة المفسّرين، وعلماء القرآن، وكتّاب السيرة، إلى معرفة أسباب نزول القرآن، استدعت منهم الانتقال من **نظام اللغة**، مجسّداً في النصّ الدينيّ، إلى **نظام الواقع**، مجسّماً في الوقائع والنوازل التاريخيّة. واقتضى منهم هذا الانتقال الاستناد إلى قرائن لغويّة قرآنيّة مكّنتهم من صناعة الأخبار واختلاقها، والإيهام بحقيقتها التاريخيّة. ولئن لم يصرّحوا، البتّة، بتعويلهم على تلك القرائن، فإنّ تفحّصاً رصيناً للآيات التي لها أسباب نزول أوصلنا إلى تعيين هذه القرائن، من أهمّها:

1. السؤال والاستفتاء:

وجد المفسّرون القدامى، وعلماء القرآن، في الآيات، التي ضمَّت عبارة «يسألونك»، إمكاناً مناسباً لنسج أخبار أسباب نزول حولها؛ إذ سلّموا بوجود أسئلة طُرحت حقيقةً على الرسول، بما أنّه هو المقصود من الخطاب. أمّا من ألقى هذه الأسئلة، فغير محدّد في نصّ المصحف تحديداً صريحاً؛ ذلك أنّ الفاعل مسند إلى ضمير الغائب الجمع «هُمْ».

1 يقول هشام جعيّط: «إذا كان صحيحاً أنّ القرآن لا يذكر المحطّات كلّها لسيرة النبيّ، فهو يشير إلى الكبرى منها في حياته الخاصّة؛ صفته القرشيّة، يتمه، فقره ثمّ غناه، تجلّي المَلَك أو الله ذاته له، التكذيب والمعاناة، الهجرة، بدر، أحد، المنافقون، الفتح، وغير ذلك من الأحداث الهامّة على صعيدَي النبوّة والتاريخ». **الوحي والقرآن والنبوّة**، ص 35. وانظر أيضاً:

J .CHABBI, ***Le seigneur des tribus,*** p. 79.

وبالعودة إلى كتَابَيْ (**أسباب النزول**) للواحدي، و(**لباب النقول**) للسيوطي، تبيّن لنا أنّ الآيات كلّها المتضمّنة لعبارة «**يسألونك**» (وقد تكرّرت في نصّ المصحف خمس عشرة مرّة)، لها أسباب نزول في المؤلَّفَيْن معاً. من ذلك سبب نزول الآية: [يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحَجِّ...] [البقرة 2: 189]. فقد ساق الواحدي، في شأن نزولها، ثلاثة أخبار هي[2]:

• الخبر الأوّل: «قال معاذ بن جبل: يا رسول الله إنّ اليهود تغشانا، ويكثرون مسألتنا عن الأهلّة. فأنزل الله تعالى هذه الآية».

• الخبر الثاني: «قال قتادة: ذُكر لنا أنّهم سألوا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم: لِمَ خُلِقَت هذه الأهلّة؟ فأنزل تعالى: قُلْ هِي مَوَاقِيتُ للنَّاس والحَجِّ».

• الخبر الثالث: «قال الكلبي: نزلت في معاذ بن جبل، وثعلبة بن عنمة، وهما رجلان من الأنصار قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو، فيطلع دقيقاً مثل الخيط. ثمّ يزيد حتّى يعظم، ويستوي، ويستدير. ثم لا يزال ينتقص ويدقّ حتّى يكون كما كان، لا يكون على حال واحدة؟ فنزلت الآية».

عندما نتأمّل هذه الأخبار، يتّضح لنا أنّ الخبر الأوّل يعيّن الطرف السائل، وهو، ههنا، اليهود، وغلب على السؤال المطروح التعميم والغموض الشديدان؛ إذ لا نعلم على وجه الدقّة محتوى سؤال اليهود للصحابة. أمّا الخبر الثاني، فينزع إلى شيء من الضبط والتحديد، ولاسيّما في مستوى السؤال وهو: «لِمَ خُلقت هذه الأهلّة؟»، ولكن دون معرفة السياق الدلالي الذي يبرّر إلقاء هذا السؤال على النبيّ من جهة، ودون معرفة الطرف السائل من جهة أخرى. ويُمعن الخبر الثالث في تفصيل القول في محتوى السؤال، ولكن مع انزياح عمّا تضمّنته الإجابة الواردة في نصّ الآية؛ إذ لا يتعلّق الأمر، ههنا، بسيرورة الهلال، أو باستحالته بدراً، ثمّ عودته هلالاً، وهكذا دواليك.

واللافت للانتباه أنّ مضمون سؤال معاذ بن جبل قد طرأت عليه عدّة تغييرات حينما نقارن بين الخبرين الأوّل والثالث؛ إذ لم يعد لليهود ذكر في الخبر الثالث، وبرز شخص آخر طرح السؤال على الرسول، وهو ثعلبة بن عنمة (ت 5هـ). ولئن ذُكر الخبر الأخير في كتابيْ الواحدي والسيوطي، فإنّه غاب عن تفسيري الطبري والطبرسي. أمّا القرطبي، فقد عمد إلى الجمع بين الخبرين الأوّل والثالث في رواية واحدة وردت على لسان معاذ: «يا رسول الله إنّ اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلّة، فما بال الهلال يبدو دقيقاً ثمّ يزيد حتّى يستوي ويستدير، ثمّ ينتقص حتّى يعود كما كان؟ فأنزل الله هذه الآية»[3].

---

2 **أسباب النزول**، ص ص 55- 56

3 **تفسير القرطبي**، ج II، ص ص 227- 228

ونعتقد بأنّ ما ألمعنا إليه، من وجوه الاختلاف بين المفسّرين وعلماء القرآن في ضبط سبب نزول الآية، لدليل على أنّ أخبار سبب النزول قُدَّتْ على مقاس الآية. وممّا ساعدهم على ذلك أنّها تضمّنت الإجابة عن السؤال، الذي كتم الوحي تفاصيله وجزئيّاته، فعبارة «يسألونك» تأتي، في الغالب، ضمن التركيب الآتي: «يسألونك... قُلْ...»[4].

وحينما ننظر في قوله: [يَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً] [**الكهف 18/ 83**]، نرى أنّ الواحدي أثبت للآية سبب نزول، ونصّه على لسان قتادة: «إنّ اليهود سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذي القرنين. فأنزل الله تعالى هذه الآيات»[5]. ولعلّ أبرز مطعن يمكن توجيهه إلى هذا الخبر أنّ سورة الكهف مكّيّة كلّها في نظر القدامى، بينما يُشير الخبر المذكور إلى علاقة الرسول باليهود في المدينة، وفضلاً عن ذلك، إنّ نصّ الخبر لا يضيف علماً إلى نـصّ الآيـة، أو يوضح غامضاً فيه. وممّا يعزّز سمة الوضع والاختلاق في الخبر أنّ القدامى لم يذكروا سبباً لنزول الآية، وهذا ما تؤكّده، مثلاً، تفاسير الطبري، والطبرسي، والرازي، والقرطبي، و(لباب) السيوطي.

ومثلما صُنِعَتْ للآيات المتضمّنة لعبارة «يسألونك» أسبابُ نزول، التمس القدامى أسباب نزول للآيتين المحتويتين على عبارة «**يستفتونك**»؛ ذلك أنّ الآيتين (127 و176)، من سورة [**النساء 4**] دائرتان حول النساء والكلالة. فبالنسبة إلى الآية الثانية اختلف المفسّرون في إسناد سبب نزول إليها؛ إذ للآية سبب في تفسيري الطبري[6] والقرطبي[7]، بينما لم يَرِدْ لهذا السبب ذكر في تفسيري الطبرسي والرازي، على الرغم من أنّ الآية في أحكام المعاملات عموماً. وقد بدا لنا خبر سبب النزول مركّباً على الآية، وهذا ما يجلوه قول جابر بن عبد الله: «اشتكيتُ، فدخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندي سبع أخوات، فنفخ في وَجهي فأفقت، فقلت: يا رسول الله أوصِي لأخواتي بالثلثين، قال: احبس، فقلتُ: الشطر؟ قال: احبس، ثمّ خرج فتركني، قال: ثمّ دخل عليّ، وقال لي: يا جابر إنّي لا أراك تموت في وجعك هذا، إنّ الله قد أنزل، فبَيَّنَ الذي لأخواتك، جعل لأخواتك الثلثين»[8]. فهذا الخبر يحدّد المبرّر الشكليّ المباشر الذي جعل الرسول يدخل على جابر، وهو شكواه من علّة أصابتْه، ثمّ يُشير الخبر (بعد أن دار على حال جابر) إلى عدد أخواته، على نحو ينسجم مع ما سيُلْقى من أسئلة على الرسول؛ بل إنّ طرح تلك الأسئلة ظهر لنا مُسْقَطاً لا يقتضيه

---

4 لم يعْدل عن هذا التركيب إلا في مناسبة واحدة تعلقت بالآية (43) من سورة **النازعات 79**

5 **أسباب النزول**، ص 306

6 انظر: **تفسير الطبري**، ج IV، ص 379

7 انظر: **تفسير القرطبي**، ج VI، ص 20

8 الواحدي، **أسباب النزول**، ص 190. وانظر الخبر نفسه في **لباب النقول**، ص ص 156 – 157

سياق الواقعة. وفضلاً عن ذلك كلّه، ينتهي خبر سبب النزول، ولا يوضّح شيئاً من أمر الكلالة التي حيّرت المفسّرين القدامى وأرّقتهم[9].

وحينما نقارن بين هذا الخبر وما جاء في شأن سبب نزول الآية (11) من سورة [**النساء 4**]، نقف على تشابه بينهما في بناء المتن، إضافة إلى إسناد رواية الخبر إلى جابر أيضاً؛ إذ يقول: «عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في بني سلمة يمشيان، فوجدني لا أعقل، فدعا بماء، فتوضّأ ثمّ رشّ عليّ منه فأفقتُ، فقلتُ: كيف أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: [يُوصِيكُمْ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ] الآية[10]. ففي الخبرين تنتاب الراوي الحالة المَرَضيّة نفسَها. ثمّ يسوق، إثر إفاقته، سؤالاً، أو أكثر، لا يقتضيه، بالضرورة، مقام القول ليكون حجّة واهية لبيان سبَبَيْ نزول الآيتين.

ويمكن أن نجد، أيضاً، اختلافاً بين المخاطِب، في الآية 176 من [**النساء 4**]، وفي مَنْ نزلت بسببه؛ فالوحي يشير، في مستوى السؤال، إلى جمْع «يسألونك»، بينما يتعلّق خبر سبب النزول بشخص مفرد.

وهكذا، إنّ المفسّرين القدامى تتبّعوا الآيات التي يُفهم منها إلقاء سؤال على الرسول، أو استفتاؤه في أمر معيّن، وصنعوا لها أخباراً، جاعلين أبطالها من الصحابة المعروفين، ومتّخذين من الرسول شاهد إثبات على صحّة ما رووه من أسباب نزول[11]. ولا يفهمَنّ من كلامنا أنّ كلّ آية معبّرة عن صيغتيْ السؤال والاستفتاء ليست لها في الواقع التاريخيّ أسباب نزول، فهذا الاحتمال يبقى وارداً لكن دون الجزم بحدوثه حقيقةً، فنحن، اليوم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، نتعامل مع نصّ افتقدنا فيه «**وضعيّة الخطاب**» لمّا كان قرآناً بالمعنى الحقيقي للكلمة. ولكنّ ذلك لا يمنع من القول إنّ الله، على حدّ رأي الطالبي، يجيب عمّا يُلْقى عليه من أسئلة، ولكنّه لا يقدّم إجابات نهائيّة، أو يصوغ نظريّة معيّنة، وإنّما يدعو الناسَ إلى البحث، والنظر، والتفكُّر[12]؛ ولذلك لم ينتبه القدامى إلى أنّ السؤال والجواب في علم أسباب النزول لهما طبيعتان مخصوصتان من جهة، ومرجعان متباينان: بشريّ نسبيّ وإلهيّ مفارق، من جهة أخرى[13].

---

9 انظر بحثًا في دلالة الكلالة عند:

David S. Powers, ***On the abrogation of the bequest verses***, pp. 246-295.

وانظر، أيضاً، نائلة السليني الراضوي، **تاريخيّة التفسير القرآني**، ج I، ص ص 231- 236

10 **أسباب النزول**، ص 149.

11 اعتبر بلاشير (Blachère) الرسولَ، في الطور المدني، في إجاباته عمّا يُلقى عليه من أسئلة بمنزلة «المفتي»، الذي يمدّه الله بنوره. انظر: مقدّمة ترجمته الثانية للقرآن (بالفرنسيّة)، ص 22.

12 راجع: ***Quelle clé pour lire le Coran?*** p. 73.

13 يقول علي أومليل في هذا المعنى: «سبب النزول، كما قلنا، سؤال، إلا أنّه سؤال استثنائيّ، سؤال ثابت سُئِلَ في زمان فذّ، فأنتج جواباً لا يتعلّق بزمان، أو هو يتعلّق بكلّ الأزمنة، وهو سؤال غريب؛ لأنّه غير مكافئ لجوابه، ذلك أنّ السؤال بشريّ طرحه إنسان، أو أناس، إلاّ أنّ الجواب لم يكن بشريّا؛ لأنّه وحي». **في شرعيّة الاختلاف**، ص 54.

2. الأمر والنهي:

لمّا كان الإسلام، لحظة انبثاقه في القرن السابع الميلاديّ، داعياً إلى منظومة دينيّة، وقيميّة، وتشريعيّة، استدعت عدولاً عن قيم سائدة في الجزيرة العربيّة، فإنّ الوحي المحمّديّ قد قام على جملة من الأوامر والنواهي لقيت اهتماماً بارزاً من المفسّرين والفقهاء، ولاسيّما من الأصوليّين الذين أفردوا لها باباً ضمن مؤلّفات أصول الفقه[14]. وبذلك استغلّ المفسّرون، وعلماء القرآن، تعدّد أسلوبَيْ الأمر والنهي في القرآن لحبك أسباب نزول الآيات، ممّا لا يقتضي، بالضرورة، وجودها في الواقع التاريخيّ. ولنا في مدوّنتنا النصّيّة شواهد كثيرة معبّرة عمّا اصطنعه القدامى من أخبار للآيات تضمّنت صيغة أمر، أو صيغة نهي؛ من ذلك أنّ الآية (195) من [سورة البقرة 2] جمعت بين الصيغتين: [وأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ولاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ].

وعلى الرغم من أنّنا إزاء آية واحدة، فإنّ للقسم الأوّل منها (أي صيغة الأمر) أسباب نزول مقتصرة عليه. وعيّن المفسّرون للقسم الثاني منها المتضمّن صيغة النهي أسباب نزول أخرى، فضلاً عن إثبات سبب نزول يَهُمُّ الآية كلّها. فمن الأخبار الخاصّة بالجزء الأوّل من الآية قول محمّد بن كعب القرظي: «كان القوم في سبيل الله، فيتزوّد الرجل، فكان أفضل زاداً من الآخر، أنفق البائس من زاده حتّى لا يبقى من زاده شيء، أحبَّ أن يواسِيَ صاحبه، فأنزل الله: [وأنفقوا في سبيل الله...]»[15].

ويورد الواحدي خبراً آخر جاء على لسان الضحّاك بن أبي جبيرة يقول: «كان الأنصار يتصدّقون، ويطعمون ما شاء الله، فأصابتهم سنة، فأمسكوا، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية»[16].

أمّا الرازي، فإنّه ساق خبراً عقَد فيه الصلة بين هذه الآية والآية السابقة لها؛ إذ يقول: «يُرْوَى أنّه لمّا نزل قوله تعالى: [الشَّهْرُ الحَرَامُ بالشَّهْرِ الحَرَامِ والحُرُمَاتُ قِصَاصٌ...] [**البقرة 2/194**]، قال رجل من الحاضرين: والله يا رسول الله ما لنا زاد، وليس أحد يطعمنا، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينفقوا في سبيل الله، وأن يتصدّقوا، وأن لا يكفّوا أيديهم عن الصدقة، ولو بشقّ تمرة تُحمل في سبيل الله فيهلكوا، فنزلت هذه الآية على وفق رسول الله صلى الله عليه وسلم»[17].

يتّضح لنا، من خلال هذه الأخبار، اختلاف الفواعل فيها؛ إذ وجدنا ثلاثة منها: «القوم»، و«الأنصار»[18]، و«رجل من الحاضرين»، واتّسمت هذه الأخبار باختلاف في مضامينها أيضاً؛ ذلك أنّ محتوى الخبر الأوّل

14 انظر مثلاً: الرازي، فخر الدين، **المحصول من علم أصول الفقه**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1988م، ج I، ص ص 184- 352

15 **تفسير الطبري**، ج II، ص 207

16 **أسباب النزول**، ص 59

17 **تفسير الرازي**، ج V، ص 135

18 لمّا كان الخبر الثاني متعلقاً بسلوك أتاه الأنصار، واعترض عليه الوحي، فإنّ القرطبيّ الأنصاريّ لم يثبت ذاك الخبر في تفسيره.

وجدَ تزكية من الوحي. أمّا الخبر الثاني، فقد بدا متعارضاً مع ما دعا إليه القرآن من أمْر بالإنفاق، بقطع النظر عن حقيقة هذا الأمر، أهو من طريق الاختيار، أم من جهة الوجوب؟

وفي ما يخصّ الجزء الثاني من الآية، فإنّ الخبر المبيّن لسبب نزولها مداره على رواية النعمان بن بشير (ت 56هـ)، حين قال: «كان الرجل يذنب الذنب، فيقول لا يغفر لي، فأنزل الله: [وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ]»[19]. وإذا كانت علامات الاختلاق واضحة في هذا الخبر، فإنّ المفسّرين يسوقون خبراً آخر على لسان أسلم بن أبي عمران، وهو قوله: «غزونا القسطنطينيّة، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن الوليد، والروم مُلْصِقُو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدوّ، فقال الناس: مَه مَه! لا إله إلّا الله، يُلْقِي بيديْه إلى التهلكة! فقال أبو أيّوب: سبحان الله! أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لمّا نصر الله نبيّه، وأظهر دينه، قلنا: هلُمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله عزّ وجلّ: [وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ الله] الآية»[20].

والذي نخرج به أنّ مثل هذه الأخبار لم تراعِ وظيفة الارتباط بين الأمر والنهي في الآية، ولم تقف على دلالاته. ولا شكّ في أنّ تباين آراء المفسّرين في تعيين سبب نزول الآية أمارة على أنّ تلك الأخبار وُجدت لفهم علّة ما أمَر الله به عباده، وما نهاهم عنه؛ فالأمر والنهي المتضمّنان في الآية وردا في سياق الحثّ على الجهاد، وبذل المال في سبيل الله متى أُجْبِرَ المسلمون على مقاتلة أعدائهم، وأُكْرِهُوا على ذلك. وهذا المعنى واضحٌ جدّاً في الآية 190 من السورة نفسها: [وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الذين يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ]. ولكنّ التأويل، الذي تبنّاه المفسّرون، هو تقييد الإنفاق في سبيل الله، بالجهاد من ناحية، والتخلّي عن السبب المباشر المبرّر لمقاتلة المسلمين أعداءَهم من ناحية أخرى. وبذلك اعْتُبِرَت حركات الفتوح والتوسّع، والحملات العسكريّة خارج حدود الجزيرة العربيّة، من مقتضيات الجهاد، أو قُلْ القتال الذي أمر به اللهُ عبادَه[21]؛ ولذلك احتاج المفسّرون إلى صناعة أخبار ترسّخ في الوجدان الإسلاميّ هذا التأويل المخصوص للآية.

والمستفاد ممّا تقدّم أنّ المفسّرين وعلماء القرآن كانوا حريصين على معرفة العلل الكامنة وراء الأوامر والنواهي الواردة في نصّ المصحف[22]. فعندما يقول الله، مثلاً: [وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً...] [**الكهف 18: 131**]، فذاك يقتضي، في نظرهم، وجود علّة مفسّرة لهذا النهي[23]. ولم يخطر ببالهم أنّ الأمر، أو النهي، يمكن أن ينزلا ابتداءً دون الحاجة إلى سبب تاريخيّ.

---

19 السيوطي، **لباب النقول**، ص 56

20 **تفسير القرطبي**، ج II، ص 240

21 تعبّر حركة الفتوحات، في نظر عبد المجيد الشرفي، عن «انحراف عن أهداف الرسالة، من حيث تغليب «الجهاد» في شكله الهجوميّ العنيف، وبكلّ الفساد الذي ينتج عنه، على حرّية المعتقد، وعلى الدعوة بالتي هي أحسن...»، **الإسلام بين الرسالة والتاريخ**، ص 116

22 راجع: A. Rippin, ***The function ofasbāb al-nuzūl***..., pp. 9-10.

23 انظر: الواحدي، **أسباب النزول**، ص ص312- 313. وتجدر الإشارة إلى أنّنا لم نجد لهذه الآية سبب نزول في تفسيري الطبري والقرطبي.

3. الخطاب القرآنيّ العامّ:

لا شيء أقلق المفسّرين مثلما أقلقتهم ضروب من الخطاب القرآنيّ نازعة إلى التعميم والإجمال؛ فالذي يهمّهم بالدرجة الأولى، وهم يتعاملون مع نصّ المصحف تفسيراً وتأويلاً، توضيح ما بدا لهم مبهماً من الكلام، وردّ الخطاب القرآنيّ إلى مراجعه التاريخيّة، ومن ثمّ استغلّوا خاصّية التعميم الغالبة على الوحي لوضع أخبار مفسّرة لأسباب نزول الآيات. ولنأخذ، مثلاً على ذلك، كلمة «**الإنسان**»؛ إذ تكرّر استعمالها (65) مرّة في نصّ المصحف، وردت أغلبها في سور مكّيّة، ومن المعلوم أنّ ما يغلب على الخطاب القرآنيّ في المرحلة المكّيّة توجّهه إلى الإنسان مطلقاً بقصد عطف القلوب على الدين الجديد المؤسّس على التوحيد، وعلى مفهوم الله خالقاً للكون وللإنسان معاً.

لذلك صنع المفسّرون وعلماء القرآن أسباب نزول لآيات متضمّنة لعبارة «الإنسان» على الاستغراق. من ذلك الآية: [أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أَلَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ] [القيامة 75: 3]. فالمعنى المراد منها يمكن بلوغه دون حاجة إلى معارف من خارج النصّ الدينيّ، ولكنّ الذي اعتقد القدامى صوابه وجود سبب «تاريخيّ» تخرج بمقتضاه كلمة «الإنسان» في الآية من الإطلاق إلى التعيين، وعندئذٍ علّق بها الواحدي الخبر الآتي: «نزلت في عديّ بن ربيعة، وذلك أنّه أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: حدّثني عن يوم القيامة متى يكون؟ وكيف يكون أمرُها وحالُها؟ فأخبره النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك. فقال: لو عاينت ذلك اليومَ لم أصدقْك يا محمّد ولم أؤمن به، أَوَ يجمَع اللهُ العظام؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية»[24].

وفي رواية أخرى، أنّ المقصود من الآية أبو جهل (ت 2هـ) حين أنكر البعث[25]. وهكذا، فإنّ اتّكاء المفسّرين على سبب النزول مكّنهم من تجاوز التعميم الغالب على عبارة «الإنسان». والحقيقة، أنّ فخر الدين الرازي يكاد يكون الوحيد، من بين المفسّرين القدامى، ممّن تفطّن إلى أن إلصاقَ سبب نزول بالآية لا يقتضيه نصّ الوحي؛ ولذلك قال في آخر الخبر المبيّن لسبب النزول: «وقال جمع من الأصوليّين: بل المراد الإنسان المكذّب بالبعث على الإطلاق»[26]. ويتأكّد هذا الفهم المتميّز للرازي في حديثه عن سبب نزول الآية: [كَلاَّ إِنَّ الإنْسَانَ لَيَطْغَى] [**العلق96: 6**]. ففي الآية قولان: القول الأوّل مال أصحابه إلى تعيين الإنسان، وهو مرّة أخرى، أبو جهل في رأي أكثر المفسّرين، مع اختلاف في قصّة النزول من مفسّر إلى آخر. من ذلك الخبر الذي رواه أبو هريرة قائلاً: «قال أبو جهل: هل يعفّر محمّد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم. قال: واللات والعزّى لئن رأيته يفعل لأَطَأَنَّ على رقبته ولأَعفّرنَّ وجهه في التراب! فأنزل الله: [كلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى...]»[27].

---

24 **أسباب النزول**، ص 469

25 انظر: **تفسير القرطبي**، ج XIX، ص 61

26 **تفسير الرازي**، ج XXX، ص 217

27 السيوطي، **لباب النقول**، ص 486

وبقطع النظر عن الاحتراز، الذي نسجّله على أبي هريرة، في سرد سبب نزول آية مكّيّة من أوّل ما نزل من القرآن، على نحو ما وضّحناه في الفصل الأوّل من هذا الباب، فإنّ قولاً ثانياً تبنّاه فخر الدين الرازي، وانتصر له مفاده: «أنّ المراد من الإنسان المذكور في هذه الآية **جملة الإنسان**. والقول الأوّل، وإن كان أظهر بحسب الروايات، إلّا أنّ هذا القول أقرب بحسب الظاهر؛ لأنّه - تعالى - بيّن أنّ الله - سبحانه - مع أنّه خلقَه مِن علَقة، وأنعم عليه بالنِعم التي قدّمنا ذكرها؛ إذ أغناه، وزاد في النعمة عليه، فإنّه يطغى، ويتجاوز الحدّ في المعاصي واتّباع هوى النفس...»[28].

وقد بدا الرازي ثابتاً على هذا الموقف في كلّ آية تنزع إلى تقرير خطاب قرآنيّ عامّ على خلاف ما كرّسه جلّ المفسّرين من اختلاق أخبار مفسّرة لأسباب نزول مثل هذه الآيات؛ فصاحب القول المذكور في الآية (17) من سورة [**الأحقاف 46**] غيرُ معيّن: [وَالذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أَخْرُجَ وَقَدْ خَلَتِ القُرُونُ مِنْ قَبْلِي...]. ولكنّ ما قرّره السيوطي، مثلاً، أنّ هذه الآية نزلت «في عبد الرحمن بن أبي بكر قال لأبويه، وكانا قد أسلما، وأبَى هو أن يُسلم، فكانا يأمرانه بالإسلام، فيردّ عليهما ويكذّبهما ويقول: فأين فلان، وأين فلان؟ يعني مشايخ قريش ممّن قد مات، ثمّ أسلم فَحَسُنَ إسلامه...»[29]. ولكنّ الرازي - وإن أشار إلى هذا الخبر في تفسيره - أعرض عنه مقدّماً قولاً آخر في شأن المَعْنِي بالآية؛ إذ «ليس المراد منه شخصاً معيّناً؛ بل المراد منه كلّ مَن كان موصوفاً بهذه الصفة، وهو كلّ مَن دعاه أبواه إلى الدين الحقّ، فأباه وأنكره، وهذا القول هو الصحيح عندنا...»[30]. وبعد الاستدلال على وجاهة مذهبه بحُجج ثلاث خَلُصَ إلى المبدأ الآتي: «**لا حاجة، البتّة، إلى تخصيص اللفظ المطلق بشخص معيّن**»[31].

والذي نستنتجه وجود مقابلة تامّة بين «الخطاب القرآنيّ» النازع إلى إلغاء المرجعيّات التاريخيّة، وعدم اكتراثه بتعيين الأسماء، وتحديد الأمكنة والأزمنة من جهة[32]، و«نشاط المفسّرين» الحريص على ضبط الوقائع، وتعيين المطلق من الأسماء، والتدقيق الزمنيّ للأحداث، من جهة أخرى. بعبارة أخرى، إنّ عمل المفسّرين مندرج، أساساً، في «إعادة تشكيل الظروف التاريخيّة لأسباب النزول»[33].

ولم يكن الخطاب القرآنيّ العامّ منحصراً في آيات الأخبار، وإنّما تجاوزها إلى ما عدّه الفقهاء آيات أحكام منظِّمة للعبادات، ومقنّنة للمعاملات. وقد علّق المفسّرون بهذه الآيات أسباب نزول حتّى تكتسب الأحكام

28 **تفسير الرازي**، ج XXXII، ص 18

29 **لباب النقول**، ص 392

30 **تفسير الرازي**، ج XXVIII، ص 23

31 **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها. وانظر في الموضوع نفسه الخبر المتعلق بسبب نزول الآية (37)من سورة **الأنبياء (21) المصدر نفسه**، ج XXII، ص 171

32 يتجلّى أسلوب «التعميم» الطاغي على القرآن في «جنوحه جنوحاً صارخاً إلى استعمال الاسم الموصول، والضمائر النائبة عن الأعلام، والترفع عن ضبط الإطارين الزمانيّ والمكانيّ، وتفصيل القول في الأحداث والوقائع». الجطلاوي، الهادي، **قضايا اللغة في كتب التفسير**، ص 233

33 أركون، محمّد، **الفكر الإسلاميّ: قراءة علميّة**، ص 151

الفقهيّة شرعيّتها الدينيّة والتاريخيّة في الوقت نفسه. من ذلك أنّ الخِطاب في الآية (178) من سورة [**البقرة 2**] موجّه إلى المؤمنين عامّة: [يَا أَيُّهَا الذِين آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الحُرُّ بِالحُرِّ وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ...].

ولئن كان الحكم القرآنيّ بَيّناً في هذه الآية، فإنّ المفسّرين التمسوا له سبباً تاريخيّاً، هو عند التأمّل، صياغة أخرى لنصّ الآية، وهذا ما يجلوه قول جابر بن عبد الله: «إنّ حيّيْن من العرب اقتتلوا في الجاهليّة قبل الإسلام بقليل، وكان بينهم قتل وجراحات حتّى قتلوا العبيد والنساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتّى أسلموا، فكان أحد الحيّيْن يتطاول على الآخر في العدد والأموال، فحلفوا ألاّ يرضوا "حتّى يقتل بالعبد منّا الحرّ منهم والمرأة منّا بالرجل منهم" فنزل فيهم: [الحُرُّ بِالحُرِّ وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى]»[34].

فهذا الخبر، كما لا يخفى، لا يقدّم معطيات تاريخيّة دقيقة، أو معلومات مضبوطة، في شأن هذين الحيَّيْن، وهل ما عَزَمَا على فعله منسجم مع سلوك قبليّ شائع، وقتئذٍ، بين القبائل العربيّة، أو مناقض له؟ ولا شكّ في أنّ البحث عن أسباب نزول لآيات الأحكام يعكس حاجة المفسّرين وعلماء القرآن إلى «ربط الأحكام الفقهيّة المجرّدة بأحداث ملموسة، وأشخاص تاريخيّين، حسب ما كان يفعله القصّاص والوعّاظ المدفوعون بواعز تقريب النصّ المقدّس من الأذهان أكثر من احتفائهم بالحقيقة التاريخيّة كما نفهمها اليوم»[35].

4. التمثيل والصور المجازيّة:

من أهمّ خصائص النصّ الدينيّ قيامه على الإشارة، والرمز، وبلاغة النظم، حتّى عُدَّ ذلك كلّه عنوان إعجازه، وعلامة على مباينته لسائر ضروب الكلام منظومه ومنثوره، ولكن دون خروج عمّا درج عليه العرب؛ ولذلك واشج القرآن بين أنماط عديدة من الخطابات جمعت بين «الخطاب النبويّ، والخطاب التشريعيّ، والخطاب السرديّ القصصيّ، وخطابات الحِكَم والأمثال الجامعة، وخطاب التراتيل والتسابيح»[36].

والذي يهمّنا من هذه الخطابات الخطاب المبنيّ على التمثيل والمجاز، باعتبار أنّ «الأسلوب المجازيّ يغلب على الخطاب القرآنيّ، كما يغلب على بنية اللغة الدينيّة بشكل عامّ»[37]. وعادةً، يعوّل الوحي على هذا الأسلوب لتقريب مقاصد الرسالة المحمّديّة من أذهان المتقبّلين لها، وعندئذٍ، ينهض المجاز في القرآن بالوظيفة نفسها التي يؤدّيها في الشعر العربيّ القديم.

34 السيوطي، **لباب النقول**، ص 48. وانظر، أيضاً، الواحدي، **أسباب النزول**، ص ص 53- 53

35 الشرفي، عبد المجيد، **لبنات**، ص 169

36 أركون، محمّد، **الفكر الإسلاميّ: نقد واجتهاد**، ص 91

37 حوار مع محمّد أركون بعنوان: إعادة الاعتبار إلى الفكر الدينيّ، ضمن مجلّة **الكرمل**، العدد 34، سنة 1989م، ص 18

ولمّا كان دأب المفسّرين إيجاد أسباب نزول أكبر عدد ممكن من آيات المصحف، فإنّهم لم يراعوا خصائص بعض الآيات، التي قام الإبلاغ فيها على ضرب الأمثلة، وعلى الصور المجازيّة والفنّيّة عموماً؛ وحسبنا شاهداً سبب نزول الآيتين (76 و76) من سورة [**النحل 16**]: [ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ. وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ]. فعندما نتفحّص سياق الآيتين من المصحف نتبيّن اندراجهما في مسألة ما فضّل به الله العباد بعضهم على بعض في الرزق. وهذا ما تؤكّده الآية (71) من السورة نفسها. وفضلاً عن ذلك، ينهى الله عبادَه عن ضرب الأمثال له، فذاك ممّا تنفرد به ذاته. وهنا يسوق الله مثَلَيْن يوضّح فيهما معنَى التفاوت بين المكلَّفين في الفضل وتحصيل الرزق، ولكن بدل أن يتدبّر المفسّرون مثل هذه المعاني القرآنيّة، فإنّهم اصطنعوا لهاتين الآيتين سببيْ نزول صاغهما الواحدي على لسان ابن عبّاس على النحو الآتي: «نزلت هذه الآية [ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً...] في هشام بن عمرو، وهو الذي ينفق ماله سرّاً وجهراً، ومولاه ابن الجوزاء الذي كان ينهاه، ونزلت [وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رجليْن...]؛ فالأبكم منهما الكَلّ على مولاه هو أسيد بن أبي العيص، والذي «يأمر بالعدل» هو عثمان بن عفّان»[38].

إنّ هاتين الآيتين لا تستدعيان، لفهم معانيهما، مثل هذه الأخبار المركّبة عليهما؛ بل إنّ عمل المفسّرين القائم على ردّ المجاز إلى الحقيقة قد طمس معالم الحسن والجودة التي توافرت عليهما الآيتان. ومرّة أخرى، كان فخر الدين الرازي متفطِّناً لما غفل عنه سائر المفسّرين القدامى؛ فالمراد من الآية الخامسة والسبعين «أنّه عامّ في كلّ عبد بهذه الصفة، وفي كلّ حرّ بهذه الصفة، وهذا القول هو الأظهر؛ لأنّه هو الموافق لما أراده الله تعالى في هذه الآية والله أعلم»[39]. ويعلّل الرازي مذهبه في تفسير الآيتين بأنّ «المقصود تشبيه صورة بصورة في أمر من الأمور، وذلك التشبيه لا يتمّ إلا عند كون إحدى الصورتين مغايرة للأخرى»[40].

وتحويل المعنى المجازيّ إلى حقيقة تاريخيّة يبرز في التماس المفسّرين أسباب نزول للآيات القائمة على أسلوب التشبيه، ومن النماذج الدالّة على ذلك ما جاء في الآيتين: [أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالكَافِرِينَ * يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ] [**البقرة 2: 19- 20**]؛ ذلك أنّ الغاية من التشبيه، الذي انطوت عليه الآيتان، تصوير حال الذين يظهرون الإيمان وما هُمْ بمؤمنين؛ وهؤلاء هم [الذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلاَلَةَ بِالهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ

38 **أسباب النزول، (م.س)**، ص 286. وانظر الخبر نفسه مفصّلاً في: **تفسير الطبري**، ج VII، ص 624، و**تفسير القرطبي**، ج X، ص 98

39 **تفسير الرازي**، ج XX، ص 84

40 **المصدر نفسه**، ج XX، ص 87. ويعيّن الرازي وظيفة ضرب الأمثال في القرآن قائلاً: «إنّ المقصود من ضرب الأمثال أنّها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه؛ وذلك لأنّ الغرض من المثل تشبيه الخفيّ بالجليّ، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيّته، ويصير الحسّ مطابقاً للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح». **المصدر نفسه**، ج II، ص 72

وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ] [**البقرة 2: 16**]، وعندئذٍ حقَّ عليهم عقاب الله. ففي هذا السياق الدلاليّ، ينبغي فهم مغزى التشبيه في الآيتين؛ فالله أراد هذا المعنى، ولكنّ المفسّرين أرادوا خلافه؛ ولذلك تشبّثوا بالمعاني الحرفيّة المباشرة المضمّنة فيهما، وجعلوا لهما سبب نزول رواه ابن عبّاس قائلاً: «كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين، فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله، فيه رعد شديدٌ وصواعقٌ وبرق، فجعلا كلّما أضاء لهما الصواعقُ جعلا أصابعهما في آذانهما من الفَرَق أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلهما، وإذا لمع البرق مشَيَا في ضوئه، وإذا لم يلمع لم يبصرا، وقاما مكانهما لا يمشيان، فجعلا يقولان: ليتنا قد أصبحنا فنأتيَ محمّداً، فنَضَع أيدينا في يده، فأصبحا، فأتياه، فأسلما، ووضعَا أيديهما في يده، وحَسُنَ إسلامهما...»[41].

والمستفاد أنّ المفسّرين القدامى عوّلوا على ما اصطنعوه من أسباب نزول لفهم المجاز في القرآن فهماً انحرفوا به عن مراد الله من كلامه[42]. وبذلك، فإنّ مشغل المفكّرين متعلّق بما يؤدّيه علم أسباب النزول من وظائف في تفسير النصّ الدينيّ؛ فالوظيفة، التي يحقّقها خبر سبب النزول في المثال الأخير، تجسيد التشبيه بمعناه البلاغيّ في الأحداث التاريخيّة القابلة للمعاينة والاختبار[43].

هذه، إذاً، أبرز القرائن اللغويّة القرآنيّة، التي مكّنت المفسّرين من صناعة أخبار أسباب النزول، والعمل على رواجها، والإيهام بحقيقتها التاريخيّة، غايتهم تقريب المعاني القرآنيّة العامّة، والأحكام المجرّدة، من أذهان المتقبّلين، وقد أتاح لهم نصّ المصحف، على نحو ما بيّنّا، إمكان اختلاق الأخبار حيناً، أو التضخيم من أصولها التاريخيّة، متى وُجِدَت، حيناً آخر. وبدت لنا هذه الأخبار المصنوعة متّسمة بجملة من الخصائص سنسعى إلى تعيين أهمّها.

II. خصائص الأخبار المصنوعة:

إنّ تعاملنا مع كمّ هائل من أخبار أسباب النزول جعلنا نميّز فيها بين أخبار قد يكون لها وجود تاريخيّ يمكن إثباته بالرجوع إلى السياقات الثقافيّة والأنتربولوجيّة، وأخبار أخرى بدت لنا مصنوعة موضوعة. وأفضى بحثنا، في هذا الصنف الثاني من الأخبار، إلى ضبط خصائص مشتركة بينها، هي، عند الفحص،

41 **تفسير القرطبي، (م.س)**، ج I، ص189. وانظر الخبر بلفظه عند: السيوطي، **لباب النقول**، ص ص 20- 21

42 يقول الرازي: «ثبت في أصول الفقه أنّ اللفظ الواحد لا يجوز أن يُستعمل دفعةً واحدة في حقيقته ومجازه معاً». **تفسير الرازي**، ج IX، ص 208

43 انظر: A. Rippin, ***The function ofasbāb al-nuzūl***..., p 7.

والملاحظ، في هذا السياق، أنّ القدامى عيّنوا الداعي من ضرب الأمثال، وهذا ما عبّر عنه مسكويه (ت 421 هـ) بالقول: «إنّ الأمثال إنّما تُضرَب فيما لا تدركه الحواسّ ممّا تُدركه؛ والسبب في ذلك أنسُنا بالحواسّ، وإلفُنا لها منذ أوّل كوْنِها، ولأنّها مبادئ علومنا، ومنها نرتقي إلى غيرها، فإذا أُخْبِرَ الإنسانُ بما لم يُدركه، أو حُدِّث بما لم يشاهده، وكان غريباً عنده، طلب له مثالاً من الحسّ، فإذا أُعْطِي ذلك أنِسَ به، وسَكَنَ إليه لإلفه له». التوحيدي، أبو حيّان، **الهوامل والشوامل**، تحقيق أحمد أمين والسيّد أحمد صقر، القاهرة، ط 1، 1951م، ص 240

علامات نصّيّة على سِمة الوضع الغالب عليها. وبالإمكان الوقوف على أهمّ تلك الخصائص ضمن المستويات الآتية:

1. النزعة إلى التعميم وغياب المرجع:

تتمثّل هذه الخاصّية في جنوح خبر سبب النزول إلى الإيجاز الشديد في متنه، وامّحاء القرائن التي يمكن أن تشدّه إلى الواقع التاريخيّ في محدّداته الزمانيّة والمكانيّة[44]. من ذلك الخبر المبيّن لسبب نزول الآية (148) من سورة [**النساء 4**]، وقد رواه مجاهد قائلاً: «إنّ ضيفاً تضيّف قوماً فأساؤوا قراه، فاشتكاهم، فنزلت هذه الآية رخصة في أن يشكو»[45]. وطرأت على الخبر بعض التغييرات في تفسير القرطبي؛ إذ نجد فيه الصيغة الآتية: «نزلت في رجل ضاف رجلاً بفلاة من الأرض فلم يضفه، فنزلت [إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ]»[46]. فهذا الخبر، بصيغتيْه، لا يفصح عن أسماء الشخوص، ولا يحدّد هويّتهم على نحو ما تشفّ عنه عبارات من قبيل (ضيف)، و(قوم)، و(رجل). وفضلاً عن ذلك انعدمت الإشارة إلى ظرف مكانيّ واضح المعالم، أو إلى إطار زمانيّ محدّد؛ ولذلك لا نعلم من مكان الأحداث سوى أنّه «فلاة من الأرض».

ويسوق البخاري سبب نزول الآية السابعة والسبعين من سورة [**آل عمران 3**] مسنداً إلى عبد الله بن أبي أوفى قوله: «إنّ رجلاً أقام سلعة في السوق، فحلفَ بها: لقد أعطى بها ما لم يُعطِه ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت: [إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً] إلى آخر الآية»[47]. فهذا الخبر، إضافة إلى كونه مركّباً على الآية تركيباً، لا يمدّنا بمعلومات دقيقة عن الشخوص الفاعلة فيه، ولا عن محدّدات الحدث زماناً ومكاناً.

ويبلغ التعميم ذروته في الخبر المتعلّق بالآية (45) من سورة [**ق 50**]، فقد اكتفى ابن عبّاس بالقول: «قالوا: يا رسول الله، لو خوّفتنا؟ فنزلت: [نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ومَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ]»[48]. إنّنا نجهل في هذا الخبر الدواعي الصريحة، أو الضمنيّة، التي يمكن أن تبرّر طرح مثل هذا السؤال على الرسول، وهذا يخرج عن الغاية الأساسيّة من تحديد سبب نزول الآية، وهو التعرّف إلى السياق التاريخيّ الدقيق للتنزيل، ثمّ لا شيء يدلّ في الآية على أنّ المخاطبين فيها هم أصحاب الرسول على نحو ما يشير إليه قول ابن عبّاس.

---

44 قد يبدو كلامنا هذا مناقضاً لما أشرنا إليه منذ حين من أنّ نزعة القدامى إلى تفصيل القول في سبب النزول علامة على كونه مختلقاً موضوعاً، ولكنّ الحقيقة غير ذلك؛ لأنّ في حشد الجزئيّات، وتفاصيل الأحداث والأقوال، في بعض الأخبار، تجاوزاً لمنطوق الآيات «الموافقة» لها من ناحية، ولأنّ النزعة إلى التعميم تحول دون التثبّت من الحقيقة التاريخيّة للأخبار من ناحية أخرى.

45 الواحدي، **أسباب النزول**، ص 189

46 **تفسير القرطبي**، ج VI، ص 3

47 **صحيح البخاري**، ج III، ص 207

48 السيوطي، **لباب النقول**، ص 410

ولمّا كانت هذه الأخبار المصنوعة مشتقّة من نصوص الآيات، فإنّ تلك الأخبار لا تضيف علماً إلى ما جاء به التنزيل، وإنّما تكتفي بمحاكاته مضموناً، والانحطاط دونه أسلوباً، ولنا في خبر سبب نزول الآية (186) من سورة [**البقرة 2**] أحسن مثال؛ ذلك أنّ الآية تقول: [وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ]. أمّا سبب نزولها، فهو، على ما يروى الحسن البصري: «إنّ سائلاً سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم: أقريبٌ ربّنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه، فنزلت الآية»[49]. فحينما نقارن بين نصّ الآية ونصّ سبب النزول ينكشف لنا، بيسر، أنّ سؤال سبب النزول اشتُقَّ من الآية، وهذا السؤال لم يوضّح شيئاً منها البتّة. وممّا يؤكّد طابع الوضع الغالب على الخبر أنّنا وجدنا له تنويعات أخرى في مستوى الصياغة؛ إذ أصبح «السائل»، في رواية الحسن البصري، «أعرابيّاً» في الخبر الذي ساقه السيوطي[50]. واستحال «السائل» الفردُ جمعاً غير معلوم، وهذا ما تجلوه عبارة «قالوا» في رواية أخرى ذكرها السيوطي[51]، وكلمة «قوم» في إحدى الروايات الواردة عند الطبري[52].

إنّ ما سقناه من عيّنات عن الأخبار النازعة إلى التعميم، وقد غابت عنها الروابط التي تشدّها إلى الواقع التاريخيّ، تقيم البرهان على أنّها مصنوعة، لم توجد حقيقةً لحظة نزول الآيات المتعلّقة بها؛ فهي، إذاً، إنتاج متأخّر عن مرحلة الوحي المحمّديّ، ويعكس هذا الإنتاج، في تقديرنا، فهماً ارتضاه المفسّرون وعلماء القرآن، واحتاجوا في تقريره إلى ما علّقوه بالآيات من أسباب حتّى يضفوا عليه مشروعيّة دينيّة وتاريخيّة.

2. الإسقاط التاريخيّ:

لم تسلم أخبار أسباب النزول من الوقوع في إسقاطات تاريخيّة واضحة. وتُرَدُّ هذه الظاهرة، التي طبعت الأخبار المصنوعة، إلى أنّ المفسّر، أو راوي السبب، لا يستطيع التخلّص من ضغوط واقعه التاريخيّ وإكراهاته لحظة إنشاء الخبر، ومن ثمّ تسلّلت إلى الخبر ميوله المذهبيّة، وانتماؤه الإيديولوجيّ عموماً، وعندئذٍ أقحم المفسّرون، وعلماء القرآن، في أخبار أسباب النزول مفاهيم ومباحث لم تظهر في الوحي المحمّديّ. وممّا يقوم شاهداً على ذلك قول أبي هريرة متحدّثاً عن سبب نزول الآيات (47، و48، و49) من سورة [**القمر 54**]: «جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر، فأنزل الله تعالى: [إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ] إلى قوله [إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ]»[53]. ويضيف الرازي قائلاً: «وكذلك نُقِلَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّ هذه الآية نزلت في القدريّة»[54].

---

49 **تفسير الطبرسي**، ج II، ص 13

50 انظر: السيوطي، **لباب النقول**، ص 49

51 انظر: **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

52 انظر: **تفسير الطبري**، ج: II، ص 166

53 **تفسير الرازي**، ج XXIX، ص 69

54 **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها. وفي هذا السياق، يُنسَب إلى الرسول الحديث الآتي: «القدريّة الذين يقولون: الخير والشرّ بأيدينا ليس لهم في شفاعتي نصيب، ولا أنا منهم ولا هُم منّي». انظر: **تفسير القرطبي**، **(م.س)**، ج XVII، ص 96

فممّا لا شكّ فيه أنّ الخوض في مسألة القدر لم يحصل على عهد محمّد[55]؛ بل ظهرت إرهاصاته في منتصف القرن الأوّل الهجريّ مع القدريّة الأولى؛ أي مع أسلاف المعتزلة، وكانت بدايات التفكير القدريّ على يدي معبد الجُهَنيّ (ت 80هـ) في الحجاز، وغيلان (ت 106 هـ)، وعمرو المقصوص (ت 83هـ) في دمشق. ولعلّ أهمّ مقالة اشتهرت بها القدريّة الأولى، ثمّ المعتزلة، هي إثبات حرّية اختيار العبد لأفعاله، وتحمّل مسؤوليّته كاملةً في ذلك الاختيار.

وهكذا، يتّضح لنا أنّ الفاصل الزمنيّ بين نزول سورة القمر (وهي سورة مكّيّة) من جهة، والاهتمام بالقدر من جهة أخرى، لا يقلّ، في الأحوال كلّها، عن نصف قرن. ونعلّل هذا الإسقاط التاريخيّ بأنّ المفسّرين ظفروا، في الآية (49) من السورة، بعبارة «قَدَر»، فتأوّلوها على أنّها معبّرة عن القدريّة، أو المعتزلة، فرقةً كلاميّة مناوئة للفرقة السنّيّة عموماً؛ وبذلك غضّوا النظر عمّا أفادته تلك العبارة من معنى في سياق ورودها في الآية، على الرغم من معرفتهم به، وهذا ما يصرّح به الطبري بعد إثباته سبب النزول: «يقول تعالى ذكره: [إنّا خلقنا كلّ شيء بمقدار قدّرناه وقضيناه...][56]. وفسّر أبو علي الجبائي (ت 303هـ) (وهو من أعلام المعتزلة) هذه الآية على النحو الآتي: «إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر»؛ أي خلقنا كلّ شيء خلقناه مقدّراً بمقدار توجبه بمقدار الحكمة، لم نخلقه جزافاً، ولا تخبيتاً، فخلقنا العذاب، أيضاً، على قدر الاستحقاق، وكذلك كلّ شيء في الدنيا والآخرة خلقناه مقدّراً بمقدار معلوم»[57]. واعتباراً لهذا الفهم الذي مال إليه الجبائي، فإنّ الطبرسي لم يثبت في تفسيره سبب نزول الآية الوارد على لسان أبي هريرة.

والحاصل أنّ المفسّرين أوجدوا أسباب نزول بعض الآيات للطعن في مقالات خصومهم في المذهب، فأوقعهم هذا العمل في إسقاط تاريخيّ كرّس منطق التعسّف على النصّ الدينيّ، والانحراف به عن مقاصده. ومن النماذج المعبّرة عن هذا المعنى الخبر المبيّن لسبب نزول سورة **[قريش 106]** كلّها. «فقد حدّثت أمّ هانئ بنت أبي طالب (ت 40هـ) قالت: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم إنّ الله فضّل قريشاً بسبع خصال، ولم يُعطها أحداً قبلهم، ولا يعطيها أحداً بعدهم: إنّ الخلافة فيهم، وإنّ الحجابة فيهم، وإنّ السقاية فيهم، وإنّ النبوّة فيهم، ونُصِرُوا على الفيل، وعبدوا الله سبع سنين لم يعبُدْه أحدٌ غيرهم، ونزلت فيه سورة لم يُذكر فيها أحدٌ غيرهم [لإيلاف قريش]»[58].

ففي هذا الخبر ما يشير إلى إسقاط تاريخيّ؛ إذ يتحدّث الرسول عن مؤسّسة سياسيّة لم تكن معروفة في مرحلة الوحي، ونعني بها نظام الخلافة، الذي تشكّل على التدريج، منذ اجتماع سقيفة بني ساعدة (سنة 11

55 يرى حسين مروّة أنّ الخوض في القدر كان منذ أيّام النبيّ والخلفاء الراشدين، وهذا ما تنفيه الشواهد التاريخيّة. راجع كتابه: **النزعات المادّيّة في الفلسفة العربيّة الإسلاميّة**، دار الفارابي، بيروت، ط 6، 1988م، ج I، ص 556

56 **تفسير الطبري**، ج XI، ص 658

57 **تفسيرالطبرسي**، ج IX، ص 248

58 الواحدي، **أسباب النزول**، ص 492. وانظر أيضاً: السيوطي، **لباب النقول**، ص 494

هـ) إثر وفاة الرسول[59]. وعندئذٍ لا يمكن للرسول أن يتنبّأ بما سيحصل، فعلاً، في التاريخ الإسلاميّ، وهذا ما نبّه إليه القرآن[60]، وأكّدته عائشة بالقول: «مَن زعم أنّ محمّداً يعلم ما في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية»[61].

والذي نستنتجه أنّ الحديث الوارد في الخبر موضوعٌ مختلق، نُسِبَ إلى النبيّ بعد تحقّق الخلافة في الواقع التاريخيّ؛ وبذلك، فإنّ وظيفة الخبر، ههنا، تعليل استئثار العصبيّة القرشيّة بالسلطة السياسيّة إلى حدّ اعتبار النسب القرشيّ، على الأقلّ، نظريّاً، شرطاً من شروط أهل الإمامة[62]. وتندرج هذه الوظيفة في مبدأ عامّ مهمّ يتمثّل في «أنّ المؤسّسات التي يضعها الإنسان محتاجة دوماً [...] إلى ما يبررها في عيون المستفيدين منها، والخاضعين لها، فما إن برزت للوجود حتّى بُحِثَ لها عن سند مرجعيّ كان الدين هو مصدره الطبيعيّ عصر ذاك...»[63].

وفضلاً عن ذلك، إنّ الحديث المنسوب إلى الرسول لا يمكن اعتباره سبب نزول بمعناه الاصطلاحيّ؛ لأنّ مداره على بيان خصال قريش لا تعيين سبب نزول السورة.

لقد مثّل الإسقاط التاريخيّ، إذاً، خصيصة بارزة من خصائص الأخبار المصنوعة في علم أسباب النزول. والحقّ أنّ الفكر الإسقاطيّ في التعامل مع نصّ المصحف يتجاوز حدود هذا العلم ليشتمل على علوم إسلاميّة أخرى، من قبيل التفسير القرآنيّ، وعلم الكلام، وأصول الفقه، وغيرها[64]؛ ولذلك فإنّ تعلّق المفسّرين باختلاق أسباب نزول الآيات، واتّخاذها حجّة لتبرير ممارسات سياسيّة باسم الدين من ناحية، وللنيل من خصومهم في المذهب من ناحية أخرى، قد ترتّب عليه إلغاء المسافة الزمنيّة الفاصلة بين لحظة انبثاق الخطاب القرآنيّ في مرحلة زمنيّة معيّنة والأخبار المصنوعة، ويؤكّد ذلك كلّه أنّ النصّ الدينيّ «لم يكن إلّا ذريعة من أجل تشكيل نصوص أخرى تلبّي حاجيات عصور أخرى غير عصر القرآن بالذات»[65].

3. الاختلاف في التعاقب الزمنيّ بين طرح السؤال ونزول الآية:

إنّ الذي نبّهنا إلى هذه الخاصّية من خصائص الأخبار المصنوعة المقارنة بين المفسّرين وعلماء القرآن في تعاملهم مع الآيات نفسها؛ ذلك أنّ سبب نزول الآية قد يحضر في بعض التفاسير، ويغيب عن غيرها.

---

59 انظر: **تفسير الطبري**، ج III، ص ص 203- 210، وص ص 218- 223

60 **الأعراف 7: 188**

61 **تفسير القرطبي**، ج XIII، ص 150

62 انظر: الماوردي، أبو الحسن، **الأحكام السلطانيّة والولايات الدينيّة**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1990م، ص 32

63 الشرفي، عبد المجيد، **الإسلام بين الرسالة والتاريخ**، ص 111

64 للتوسّع في هذا المبحث راجع المحور الثاني من دراسة محمّد أركون:

*The notion of revelation*pp.78-81.

65 حوار مع محمّد أركون بعنوان: «**إعادة الاعتبار إلى الفكر الدينيّ**»، ص 5

وحاولنا الوقوف على علّة هذا الحضور، أو ذاك الغياب. وحتّى نوضّح هذا المعنى نسوق، على سبيل المثال، سبب نزول الآية (37) من سورة **[عبس 80]**، فيذكر الواحدي الخبر الآتي على لسان أنس بن مالك: «قالت عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم: أَنُحْشَرُ عُرَاةً؟ قال: نعم، قالت: وَاسوأتاه! فأنزل الله تعالى: [لِكُلِّ امرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ]»[66]. والمستفاد من الخبر، متى سلّمنا، مرّة أخرى، بصحّته التاريخيّة، أنّ سؤال عائشة كان سبباً مباشراً في نزول الآية، فلولاه لما نزلت.

ولكن حينما ننظر في تفسير الطبري لا نجد أثراً لسبب نزولها، والعلّة في ذلك أنّ الآية نزلت **ابتداءً** دون سبب، ثمّ أرادت عائشة استفسار النبيّ عمّا جاء في الآية، وهذا ما يجلوه النصّ الآتي: «... عن أنس قال: سألَتْ عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: يا رسول الله بِأَبِي أنتَ وأمّي إنّي سائلتك عن حديث أخبرتني أنتَ به. قال: إن كان عندي منه علم، قالت: يا نبيّ الله، كيف يُحشر الرجال؟ قال: حفاةً عراة، ثمّ انتظرت ساعة فقالت: يا نبيّ الله كيف يُحشر النساء؟ قال: كذلك، حفاةً عراةً، قالت: واسوأتاه من يوم القيامة! قال: وعن ذلك تسأليني؟ إنّه قد نزلت عليّ آية لا يضرّكِ كان عليك ثيابٌ أم لاَ؟ قالت: أيّ آية هي يا نبيّ الله؟ قال: [لِكُلِّ امرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ]»[67].

ثمّة، إذاً، اختلاف بين روايتيْ الطبري والواحدي في التعاقب الزمنيّ بين طرح السؤال ونزول الآية؛ وهكذا صنع الواحدي سبب نزول لها لم يرد بصفته سبباً لدى الطبري، مكتفياً بقلب ترتيب الأحداث في الواقع؛ إذ جُعِل الحدث اللاحق، وهو سؤال عائشة، في المرتبة الأولى بدل نزول الآية ابتداءً، وهذه العمليّة، كما لا يخفى، بسيطة في شكلها، ولكنّها مهمّة في بُعدها؛ لأنّها تحرّف الحقيقة التاريخيّة، وتثير الشبهة حول صدقيّة المفسّرين وعلماء القرآن في ما نسبوه إلى الآيات من أسباب نزول.

ويبدو أنّ الواحدي قد تعمّد، في أكثر من موطن، في كتابه (**اختلاقَ أخبار أسباب النزول**) بهذه الكيفيّة؛ من ذلك الخبر المبيّن لسبب نزول الآية (56) من سورة [**الأحزاب 33**]. وقد رواه كعب بن عجرة قائلاً: "قيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم: قد عرفنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك، فنزلت: [إنَّ اللهَ ومَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الذِين آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً]"[68]. ففي هذا الخبر قرائن عديدة حملتنا على الارتياب بصحّته التاريخيّة؛ فالسائل في الخبر مجهول كُتِمَتْ هويّته، ثمّ إنّ السؤال، في جوهره، لا يخلو من سذاجة قد لا تستدعي، في نظرنا، نزول وحي في شأنه، ومثل هذه القرائن حملتنا على العودة مجدّداً إلى بعض كتب التفسير ممّا أُلِّفَ قبل الواحدي وبَعده، وتأكّد لدينا أنّ الخبر شابَه الوضع والاختلاق؛ إذ لم نعثر في تفسير الطبري على سبب نزول الآية، وكلّ ما وجدناه نزول الآية ابتداءً، ثمّ أُلْقِيَ السؤال على الرسول[69]،

---

66 **أسباب النزول**، ص 472

67 **تفسير الطبري**، ج XII، ص 454

68 **أسباب النزول**، ص 375

69 انظر: **تفسير الطبري**، ج X، ص 329

وهذا ما ورد، أيضاً، في تفسير القرطبي، حيث أُثبِتَ الخبر الآتي: «يُروى أنّه قيل له: يا رسول الله، أرأيتَ قول الله عزّ وجلّ: [إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّون عَلَى النَّبِيِّ]، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هذا من العلم المكنون، ولولا أنّكم سألتموني عنه ما أخبرتكم به. إنّ الله وكَّلَ بي ملكَيْن، فلا أُذكَر عند مسلم فيصلّي عليّ إلّا قال ذلك الملكان: غفر الله لك...»[70]. وحتى السيوطي نفسه (وهو الذي خصّص كتاباً لعلم أسباب النزول) لا يشير إلى سبب نزول هذه الآية.

4. التنافر بين منطوق الآية ودلالة الخبر:

بدا لنا الاختلاق في عدد من أخبار أسباب النزول واضحاً؛ لأنّ دلالاتها جاءت متنافرة مع ظاهر الآيات الموافقة لها؛ إذ لم نعثر على علاقات منطقيّة، أو سياقيّة، من شأنها أن تشدّ الآية إلى الخبر المبيِّن لسبب نزولها، والشواهد على هذه الخاصّية في الأخبار المصنوعة كثيرة جدّاً، نكتفي بالتعرّض إلى نماذج منها؛ فالواحدي، مثلاً، نظر في الآية: [وَلَقَدْ أَتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظِيمَ] [الحجر 15: 87]، ورأى أنّ سبب نزولها ما رواه الحسين بن الفضل (ت 282هـ): «إنّ سبع قوافل وَافتْ من بُصرى وأَذْرِعَات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البزّ وأوعية الطيب والجواهر وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها فأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه السبع القوافل»[71]، فلا شيء يفسّر العلاقة بين «سبع من المثاني» والقوافل السبع»، وما أبعد مضمون الخبر، الذي ساقهُ الواحدي عن وجوه التأويل العديدة التي أثبتها الطبري في التعامل مع الآية المذكورة؛ إذ يقول: فقال بعضهم: عُنِيَ بالسبع: السبع السور من أوّل القرآن اللواتي يُعْرفن بالطول [...] وقال آخرون: عُنِيَ بذلك سبع آيات وقالوا: هُنَّ فاتحة الكتاب؛ لأنّهنّ سبع آيات [...]، وقال آخرون عُنِي بالسبع المثاني: معاني القرآن [...] وقال آخرون من الذين قالوا: عُنِي بالسبع المثاني فاتحة الكتاب: المثاني هو القرآن العظيم»[72]. والجدير بالملاحظة، في هذا السياق، أنّ السيوطي لم يعيّن سبباً لنزول الآية في كتابه **(لباب النقول)**، وفي ذلك ما يمكن أن يكون دليلاً على أنّها نزَلَت دون سبب.

ومن الأمثلة المعبّرة عن التنافر بين منطوق الآية ودلالة الخبر ما رواه عبد الله ابن مسعود في شأن نزول الآيات الثلاث الأولى من سورة [**القدر 97**]؛ إذ قال: «إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعَجب المسلمون من ذلك، فنزلت: [إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ...] الآية»[73]. ونعتقد أنّ السبب الذي استدعى نزول هذه الآيات أقلّ شأنًا من حدث إنزال القرآن ليلة القدر، بقطع النظر عن

---

70 **تفسير القرطبي**، ج XIV، ص 150

71 **أسباب النزول**، ص 283. وانظر أيضاً: **تفسير القرطبي**، **م.م.**، ج X، ص 37

72 **تفسير الطبري**، ج VII، ص ص 533- 539. وراجع أيضاً: أربعة تأويلات لعبارة «سبع من المثاني» في: **تفسير الرازي**، ج XIX، ص ص 208- 209

73 **تفسير القرطبي**، ج XX، ص89. وانظر الخبر نفسه برواية مجاهد لدى الواحدي، **أسباب النزول**، ص 486

نزوله دفعة واحدة، أو منجّماً طيلة مرحلة الوحي. وواضح من هذه الآيات، أيضاً، أنّ تفضيل ليلة القدر على «ألف شهر» هو من باب التمثيل والمجاز لا من باب الحقيقة الثابتة مثلما يقرّره خبر سبب النزول.

وبالإمكان ذكر مثال ثالث عن التنافر، الذي تحدّثنا عنه آنفاً، ذلك أنّ سبب نزول الآية (12) من سورة [**يس 36**] ما رواه أبو سعيد الخدري: «كانت بنو سلمة في ناحية المدينة، فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية: [إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي المَوْتَى ونَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ]»[74]. فسياق الآية من السورة لا يستدعي، البتّة، مثل هذا الخبر لتعليل نزولها، ويبدو أنّ سبب النزول اخترعه المفسّرون لينسجم مع تأويلهم لعبارة «آثارهم» في الآية؛ إذ المقصود بها آثار خُطى العباد بأرجلهم إلى المساجد[75].

على أنّ من المفسّرين القدامى من اعترض على أسباب نزول العديد من الآيات؛ لأنّها لا توافق مراد الله من جهة، ولا تراعي منطق التعالق والنظم بين الآية والآية التي تليها، أو تسبقها، من جهة أخرى. وليكُن الخبر المعترَض عليه ذلك الذي يهمّ سبب الآية (83) من سورة **آل عمران 3**، يقول ابن عبّاس: "اختصم أهل الكتابين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ما اختلفوا بينهم من دين إبراهيم، كلّ فرقة زعمت أنّها أولى بدينه، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: كِلاَ الفريقيْن بريء من دين إبراهيم، فغضبوا وقالوا: والله ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله تعالى: [أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ...]"[76]. فقد يبدو هذا السبب، للوهلة الأولى، متناغماً مع الآية، ولكن متى أدرجناها في سياقها من السورة بان لنا السببُ أجنبيّاً عن الآية، وبذلك لم يعتدّ به الراوي في التفسير، واستدلّ على اعتراضه بالقول: «**ويبعد عنّي حمل هذه الآية على هذا السبب**؛ لأنّ على هذا التقدير تكون هذه الآية منقطعة عمّا قبلها، والاستفهام على سبيل الإنكار يقتضي تعلّقها بما قبلها، فالوجه في الآية أنّ هذا الميثاق لمّا كان مذكوراً في كتبهم، وهم كانوا عارفين بذلك، فقد كانوا عالمين بصدق محمّد صلى الله عليه وسلم في النبوّة. فلم يبقَ لكفرهم سبب إلا مجرّد العداوة والحسد [...] فأعلمهم الله تعالى أنّهم متى كانوا طالبين ديناً غير دين الله، ومعبوداً سوى الله سبحانه، ثمّ بيّن أنّ التمرّد على الله تعالى، والإعراض عن حكمه، ممّا لا يليق بالعقلاء»[77].

ولا شكّ في أنّ الرازي قد اتّخذ «النَظْمَ» آليّة من آليّات ردّ الأخبار المصنوعة لعدم موافقتها للآيات، التي زعم غيره من المفسّرين أنّها نزلت بسبب تلك الأخبار، وهذا ما حمله على القول في شأن الآية (44) من سورة [**فصّلت 41**]: «نقلوا في سبب نزول هذه الآية أنّ الكفّار لأجل التعنّت قالوا: لو نزل القرآن بلغة

74 السيوطي، **لباب النقول**، ص 367، وراجع الخبر نفسه في: **تفسير القرطبي**، ج XV، ص 10

75 انظر: **تفسير الطبري**، ج X، ص 429

76 الواحدي، **أسباب النزول**، ص 116

77 **تفسير الرازي**، ج VIII، ص 122

العجم، فنزلت هذه الآية. وعندي أنّ أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن؛ لأنّه يقتضي ورود آيات لا تعلّق للبعض فيها بالبعض...»[78].

5. ارتباط خبر سبب النزول بفهم معيّن لآية سابقة:

من خصائص الأخبار المصنوعة تولّدها من فهم معيّن لآيات أخرى من نصّ المصحف. وتتمثّل الصورة المجرَّدة لهذه الخاصّيّة في تعمّد المفسِّر تقديم فهم معيّن لآية، ثمّ يبحث عن آية أخرى تقدّم التأويل المطلوب لتلك الآية السابقة، وعندئذٍ يكون ذلك الفهم سبباً مباشراً لنزولها، ولعلّ الشكل الأكثر تواتراً في مادّة أسباب النزول تتالي الآيتيْن في التلاوة، وعادةً تنزل أولاهما ابتداءً. من ذلك أنّ سبب نزول الآية السابعة من سورة [**الغاشية 88**] عبّر عنه المفسّرون بالقول: «لمّا نزلت هذه الآية[79]، قال المشركون: إنّ إبلنا لتسمِن بالضريع: فنزلت: [لا يُسْمِنُ وَلاَ يغْنِي مِنْ جُوعٍ]»[80]. وممّا يقيم البرهان على كون الخبر مصنوعاً ارتباط الآية السابعة **نحويّاً ودلاليّاً** بالآية السادسة، وبذلك لا نحتاج إلى سبب يفسّر نزولها؛ فالآية السابعة بمثابة النعت لعبارة «ضريع» الواردة في الآية التي قبلها، فحينما نَصِلُ بين الآيتيْن فإنّنا نقرأ بصفة متتابعة: «... ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع». وفضلاً عن ذلك، فإنّ ضمير الجمع الغائب الوارد في الآية السادسة يعود إلى «أهل النار»، وهو ما يؤكّد مظهراً آخر من مظاهر الترابط بين الآيتيْن، بعيداً البعد كلّه عن خبر سبب النزول المذكور أعلاه.

وقد تضمّن كتاب الواحدي نماذج من هذه الطريقة، ونكتفي بمثال واحد يهمّ سبب نزول الآية (164) من سورة [**البقرة 2**]، وفي ذلك يقول عطاء بن أبي رباح: «أُنْزِلَ بالمدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم: [وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمٌ] [**البقرة 2: 163**]، فقال كفّار قريش في مكّة: كيف يسع الناسَ إلهٌ واحد؟ فأنزل الله تعالى: [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ] حتّى بلغ [لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ]»[81]. والذي يُستنتج من هذا الخبر أنّه لولا سؤال قريش المترتّب على قراءتهم للآية (163) من سورة [**البقرة 2**] لما نزلت الآية (164) من السورة نفسها. وقد بدت لنا هذه الخاصّيّة في الأخبار المصنوعة متفشّية في سائر التفاسير القديمة، ومؤلّفات أسباب النزول، وعلوم القرآن عموماً[82].

وعثرنا، في هذا المستوى، على صورة أخرى من صور الأخبار المصنوعة، وهي أن ينقّب المفسّر عن آية، ويجعلها سبباً في نزول آية أخرى موجودة في سورة أخرى غير سورة الآية الأولى. وعندئذٍ لا يقوم

78 **المصدر نفسه**، ج XVII، ص 133

79 المقصود، ههنا، الآية السادسة من سورة **الغاشية**، ونصّها: [وَلَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ].

80 **تفسير القرطبي**، ج XX، ص 23

81 **أسباب النزول**، ص 51

82 انظر مثلاً: **تفسير الطبرسي**، ج IV، ص 61. و**تفسير الرازي**، ج VIII، ص 19. والسيوطي، **لباب النقول**، ص ص 257- 258

المفسّر إلا بالتقريب بين آيات متباعدة في زمان نزولها، مسترشداً في عمله بما تشترك فيه الآيات في بعض العبارات، وهذا ما نفهمه من سبب نزول الآية (186) من سورة [**البقرة 2**] على نحو ما يقول عطاء وقتادة: «لمّا نزلت: [وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ] [**غافر 40: 60**] قال قوم: في أيّ ساعة ندعوه؟ فنزلت: [وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ...]»[83]. فالذي قام به الراويان، في هذا المثال، وقوفهما على جامع مشترك بين الآيتيْن، متمثّلاً في استجابة الله لمن يدعوه من عباده. وبذلك عقدا الصلة بين النصّيْن عبر سؤال لا نعلم من أمر سائله شيئاً.

ورصدنا صورة ثالثة من الأخبار المصنوعة مفادها أنّ التعامل مع آية يكون سبباً لإلحاق قسم بالآية نفسها. وأوضح أنموذج على ذلك الخبر المفسّر لسبب نزول **الجزء الأخير** من الآية (187) من سورة [**البقرة 2**]؛ يقول سهل بن سعد (ت 91هـ): «نزلت هذه الآية: [وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ]، ولم ينزل «مِنَ الفَجْرِ». فكان رجال إذا أرادوا الصومَ ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل ويشرب حتّى يتبيّن له رؤيتهما، فأنزل الله تعالى بعد ذلك: «مِنَ الفجر»، فعلموا أنّه إنّما يعني بذلك الليل والنهار»[84]. ولا يخفى أنّ ما مكّن من اختلاق الخبر أمران اثنان هما: فهم التعبير المجازيّ في الآية فهماً حرفيّاً مباشراً، وتجزئة بنية الجملة المكوّنة للآية إلى قسمين، فلو سلّمنا بحقيقة هذا الخبر لأدّى إلى القول بأنّ الله أراد اختبار مدى استيعاب المتقبّلين للمجاز في الوحي، وانتظر منهم الوقوع في الخطأ والازورار عن المعنى المطلوب حتّى يلحق بالآية عبارة «من الفجر».

وبناءً على ما تقدّم، فإنّ هذه الخاصّيّة، التي طبعت عدداً لا بأس به من أخبار أسباب النزول أدّت إلى تهميش وجود الترابط بين الآيات. وهذا ما تناوله علماء القرآن بالدرس في مسألة المناسبة بين الآيات[85]، وهي مسألة مندرجة «في صميم الدرس اللغويّ لآليات النصّ»[86] في رأي بعض الدارسين المعاصرين. ومرّة أخرى كان فخر الدين الرازي متمثّلاً لهذه الحقيقة مستوعباً لها. من ذلك ما يُنسَب إلى ابن عبّاس أنّ نزول الآية 101 من سورة **الأنبياء21** كان بسبب نزول الآية 98 من السورة نفسها. وهذه الآيـة هي التي دفعت بابن الزِبَعْرى إلى سؤال النبي عن شتمه آلهة قريش[87]. أمّا موقف الرازي من هذا الخبر، فقد عبّر عنه قائلاً: «أعلم أنّ من الناس من زعم أنّ ابن الزَبَعْرى لمّا أورد ذلك السؤال على الرسول صلى الله عليه وسلم بقي ساكتاً حتّى أنزل الله تعالى هذه الآية (**الأنبياء21**: 101) جواباً عن سؤاله بأنّ هذه الآية كالاستثناء من تلك الآية (**الأنبياء21/98**). **وأمّا نحن فقد بيّنّا فساد هذا القول وذكرنا أنّ سؤاله لم يكن وارداً وأنّه لا حاجة**

83 **تفسير القرطبي**، ج II، ص 206

84 الواحدي، **أسباب النزول**، ص 55

85 يقول الزركشي: «المناسبة في اللغة المقاربة، وفلان يناسب فلاناً؛ أي يقرب منه ويشاكله [...] وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيتقوّى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، وقد قلّ اعتناء المفسّرين بهذا النوع لدقته، وممّن أكثر فيه الإمام فخر الدين الرازي، وقال في تفسيره: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»، **البرهان**، ج I، ص ص 35- 36

86 أبو زيد، نصر حامد، **مفهوم النصّ**، ص 168

87 انظر: الواحدي، **أسباب النزول**، ص ص 314- 315. وانظر أيضاً: السيوطي، **لباب النقول**، ص 295

في دفع سؤاله إلى نزول هذه الآية...»[88]. وهكذا برهن الرازي على أنّ الخبر المتعلّق بقصّة ابن الزَبَعْرى مصنوع لا أساس له من الصحّة التاريخيّة ويأباه المنطق اللغويّ لنصّ المصحف عموماً.

6. الحبكة القصصيّة:

إنّ ما ميّز بعض الأخبار المصنوعة ما توافر فيها من حبكة قصصيّة، إذ نجد في هذه الأخبار أبرز مقوّمات الفنّ القصصيّ من سرد وحوار وعلاقات بين شخصيّات، وتدرّج في الأحداث نحو العقدة، ثمّ الانفراج. وهذا ما سمح لنا بالحديث عن حبكة قصصيّة بالمعنى الاصطلاحيّ للعبارة. ففي أخبار أسباب النزول جزئيّات الأحداث وتفاصيلها ودقائق الوصف.

والذي حملنا على القول إنّ هذه الأخبار مصنوعة أنّه يتعذّر على الراوي التقاط مكوّنات الخبر كلّها وهو يعاينها للمرّة الأولى، وفي أغلب الأحيان، دون سابق استعداد أو علم. من ذلك ما حكاه القرطبي عن سبب نزول الآية (90) من سورة [**الإسراء 17**]؛ إذ امتدّ الخبر على ثلاث صفحات تقريباً[89]، ووجدنا فيه العناصر الآتية:

- **الفواعل الذين نزلت فيهم الآية:** وهم من قريش مثل عتبة (ت 2هـ)، وشيبة (ت 2هـ)، ابنيْ ربيعة وأبي سفيان (ت 31هـ)، والنضر بن الحارث (ت 2هـ)، وأبي جهل (ت 2هـ)... إلخ.

- **مكان الحدث وزمانه**: الاجتماع «بعد غروب الشمس عند ظَهر الكعبة»[90].

- **الحوار**: «... ثمّ قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمّد صلى الله عليه وسلم فكلّموه، وخاصموه، [...] فقالوا له: يا محمّد! إنّا قد بعثنا إليك لنكلّمك [...] فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بي ما تقولون [...] قالوا: يا محمّد، فإن كنتَ غير قابل منّا شيئاً ممّا عرضنا عليك، فإنّك قد علمتَ [...] فقال لهم صلى الله عليه وسلم: [...] قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فَخُذْ لنفسك [...] فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: [...]»[91].

- **السرد**: «فلمّا قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قام عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أميّة ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمّته، هو لعاتكة بنت عبد المطّلب...»[92].

---

88 **تفسير الرازي**، ج XXII، ص 223

89 **تفسير القرطبي**، ج X، ص ص 212- 214. وانظر القصّة نفسها عند الواحدي، **أسباب النزول**، ص ص 300- 302

90 **تفسير القرطبي**، ج X، ص 212

91 **المصدر نفسه**، ج X، ص ص 212- 214

92 **المصدر نفسه**، ج X، ص 213

• **وصف الأحوال**: «... وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته ممّا كان يطمع به من قومه حين دعوه...»[93].

• «**الرؤية من الداخل**»: «فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يظنّ أنْ قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بدوٌ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً يحبّ رشدهم، ويعزّ عليه عَنَتُهم...»[94].

إنّ هذه العناصر المكوّنة لقصّة نزول الآية لا يمكن أن تكون قد حصلت فعلاً في الواقع التاريخيّ بالشكل الذي نقله راوي الخبر، وهو محمّد بن إسحاق بن يسار صاحب السيرة، والعلّة في ذلك أنّ الراوي، في هذا المثال، لم يكن شاهداً على سبب النزول؛ بل تناهى إلى سمعه بطريقة ما نجهلها جهلاً تامّاً، وعلى الرغم من ذلك، فإنّه ينقل إلينا جزئيّات الأشياء، وتفاصيل الأقوال، على نحو تعجز فيه الذاكرة عن التقاط دقائق القصّة كلّها، وممّا يؤكّد ذلك أنّ تلقّي المعرفة مدّة التنزيل كان من طريق الرواية الشفويّة. ولعلّ توافر الخبر على عنصر الرؤية من الداخل، فضلاً عن وصف الأحوال النفسيّة للشخصيّات، ليدُلُّ، عندنا، على أنّ ابن إسحاق اشتقّ من ذاته "راوياً عليماً" يعرف عن الشخصيّة ما لا تعرفه هي عن نفسها.

والحقّ أنّ جلّ أخبار أسباب النزول النازعة إلى الإسهاب، والمتضمّنة لحركة قصصيّة كاملة المقوّمات، مرتبطة بآيات تشير، في رأي القدامى، إلى مغازي الرسول، وببعض الوفود التي قَدِمَتْ إليه[95]. وعادةً، تأتي هذه الأخبار على ألسنة علماء السيرة والمغازي الأوائل، مثل عروة بن الزبير (ت 93هـ)، والزهري (ت 124هـ)، وابن إسحاق. وهذا ما ينطبق على سبب نزول الآية (24) من سورة **الفتح (48)** الموضّح لقصّة الحديبيّة[96]؛ إذ نستطيع استخراج الوظائف القصصيّة الآتية:

• **الوضع الأصل**: نزول الرسول مع أصحابه في الحديبيّة، والإحرام بالعمرة.

• **المنع**: قريش تحول دون دخول الرسول ومن معه الحرم المكّيّ.

• **التأزّم**: شتم عروة بن مسعود الثقفيّ (ت 9هـ) لأصحاب الرسول، وإشهار المغيرة بن شعبة (ت 50هـ) لسيفه في وجه عروة.

• **المفاوضة**: المعاهدة بين الرسول وقريش، وكتابة صلح الحديبيّة.

---

93 **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

94 **المصدر نفسه**، ج X، ص 212

95 انظر الخبر المبيّن لسبب نزول الآيات (من 5 إلى 8) من سورة [**المنافقون** 63] بمناسبة غزوة بني المصطلق (شعبان 5هـ) في: **تفسير الطبرسي**، ج X، ص ص 16- 17. وراجع رواية ابن إسحاق لقصّة الرسول مع وفد نجران، وما جرى بينهما من مناظرة في سياق الحديث عن سبب نزول الآية السابعة من سورة **[آل عمران 3]** ضمن **تفسير الرازي**، ج VII، ص ص 154- 155

96 انظر: **تفسير الطبري**، ج XI، ص ص 358- 361

- **الجدل**: معارضة الصحابة للرسول على قبوله شروط قريش، والامتناع عن النحر والحَلْق.
- **الانفراج**: رجوع الرسول إلى المدينة.

وقد توحي بنية خبر سبب النزول الرتيبة بأنّه مختلق مصنوع، على نحو ما جاء في الخبر المتعلّق بسبب نزول الآية (215) من سورة **[البقرة 2]**: «قال عطاء عن ابن عبّاس: نزلت هذه الآية في رجل أتى للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: إنّ لي ديناراً، فقال: أنفقه على نفسك، قال: إنّ لي ديناريْن، فقال: أنفقهما على أهلك، فقال: إنّ لي ثلاثة، فقال: أنفقها على خادمك، فقال: إنّ لي أربعة. فقال، أنفقها على والديْك، فقال: إنّ لي خمسة. فقال: أنفقها على قرابتك، فقال: إنّ لي ستّة، فقال: أنفقها في سبيل الله، وهو أحسنها»[97]. فنحن في هذا الخبر إزاء بنية قصصيّة رتيبة هيمن عليها الحوار، ولا يخفى ما في القصّة من تدرّج في مضمونها ناهض بوظيفة تعليميّة بالأساس، فكأنّ الخبر يعيّن، من بين ما يعيّن، المقدار الأدنى من المال الذي يمكن إنفاقه في سبيل الله.

إنّ خاصّيّة الحبكة القصصيّة الغالبة على بعض أخبار أسباب النزول لا تقتضي القول، بالضرورة، إنّها مصنوعة كلّيّاً؛ ذلك أنّ هذه الأخبار ربّما قامت على **أصول تاريخيّة حقيقيّة**؛ ولذلك لاحظنا التلازم بين القصص والمغازي في هذه الأخبار. ولكنّ الرواة لم يلتزموا بنقل ما حصل، فعلاً، في الواقع التاريخيّ؛ بل تجاوزوه إلى تقديم الأحداث في قالب قصصيّ غلّبوا فيه الفنّ على التاريخ. ولا شكّ في أنّ التصرف في الحدث بالزيادة، والتضخيم، والمبالغة، وغيرها، يحقّق وظيفة مهمّة بالنسبة إلى راوي الخبر، وآية ذلك «أنّ الإخراج القصصيّ الفنّيّ يهدف إلى التلاعب بخيال السامع، والنفاذ إليه، والتأثير فيه، أكثر ممّا يهدف إلى التثبّت من صحّة الوقائع التاريخيّة المذكورة كما يفعل المؤرّخ المحترف والدقيق»[98]. وهكذا اتّخذ المفسّرون وعلماء القرآن من سبب نزول الآية مناسبة لتشكيل قصّة قد تكون نواتها حدثاً وقع بالفعل، وربّما كانت مختلقة[99].

7. التداخل بين المكّي والمدنيّ:

تتمثّل صورة التداخل بين المكّيّ والمدنيّ في أخبار أسباب النزول في كون الآية مكّيّة مثلاً بإجماع القدامى، ولكن في سبب نزولها قرائن دالّة على نزولها في المدينة، ويحدث، في المقابل، أن يتضمّن الخبر

97 الواحدي، **أسباب النزول**، ص69. وانظر الخبر نفسه في: **تفسير الرازي**، ج VI، ص ص 22- 23

98 أركون، محمّد، **الإسلام والتاريخ والحداثة**، ص 23

99 مثل هذا المعنى، في نظر (A. Rippin)، وظيفة من الوظائف التي تؤدّيها أسباب النزول، متّخذاً من خبر سبب نزول الآية (260) من سورة **[البقرة 2]** أنموذجاً. انظر:

A. Rippin, ***The function ofasbāb al-nuzūl***..., pp. 4-5.

المبيِّن سببَ نزول الآية المدنيّة علاماتٍ تشدّه إلى الطور المكّيّ، ولعلّ هذا التداخل يستدعي منّا تذكيراً بالمقصود بالمكّيّ والمدنيّ عند المفسّرين وعلماء القرآن.

إنّ الغاية من معرفة المكّيّ والمدنيّ من السور فهمُ الأحكام القرآنيّة، التي يتأسّس عليها الفقه الإسلاميّ، فـ«متى لم يكن في السورة ما يتّصل بالأحكام الشرعيّة، فنزولها بمكّة والمدينة سواء، وإنّما يختلف الغرض في ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ، فيكون فيه فائدة عظيمة»[100].

وقد اعتمد القدامى ثلاثة مقاييس لمعرفة المكّيّ والمدنيّ هي[101]:

- المقياس الأوّل مكانيّ: فالمكّيّ ما نزل في مكّة، والمدنيّ ما نزل في المدينة.
- المقياس الثاني زمانيّ: إذ المكّيّ هو ما نزل قبل الهجرة وإنْ في المدينة. أمّا المدنيّ، فهو ما نزل بعد الهجرة وإن كان في مكّة.
- والمقياس الثالث متعلّق بمقام القول: فالمكّيّ يخصّ الآيات التي يأتي فيها الخطاب موجّهاً إلى أهل مكّة، والمدنيّ ما كان خطاباً لأهل المدينة.

والظاهر أنّ المقياس الأوّل هو الذي عوّل عليه المفسّرون وعلماء القرآن في التمييز بين المكّيّ والمدنيّ[102]، ولكن مع إقرارهم بوجود بعض السور الجامعة بين آيات مكّيّة وأخرى مدنيّة. وعلى الرغم من هذه الملاحظة من لدن القدامى يمكننا الطعن في بعض الأخبار لتنافرها مع الآيات المكّيّة، أو المدنيّة، المتعلّقة بها استناداً إلى المقاييس التي اصطنعوها في التمييز بين المكّيّ والمدنيّ، ومن ثمّ، فإنّنا نناقشهم من داخل الدائرة المعرفيّة التي يتحرّكون داخلها؛ من ذلك خبر سبب نزول الآية: [يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...] [**الإسراء 17: 86**]؛ إذ يقول ابن مسعود: «إنّي لَمَعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرث **بالمدينة**، وهو متّكئ على عسيب، فمرّ بنا ناس من **اليهود**، فقالوا: سلوه عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون، فأتاه نفر منهم فقالوا له: يا أبا القاسم ما تقول في الروح؟ فسكت، ثمّ قام فأمسك بيده على جبهته، فعرفتُ أنّه ينزل عليه، فأنزل الله عليه...»[103].

---

100 **تفسير الرازي**، ج XIX، ص 72

101 انظر: الزركشي، **البرهان**، ج I، ص ص 187- 205. وراجع: السيوطي، **الإتقان**، ج I، ص ص 22- 50

102 اعترض نصر أبو حامد على وجود تمايز مطلق بين المرحلة المكيّة والمرحلة المدنيّة؛ فهو لا يعدو أن يكون «افتراضاً ذهنيّاً» ولاسيّما أنّنا نتعامل، اليوم، مع مصحف لم ترتّب آياته على حسب تعاقبها التاريخيّ في النزول. انظر: **مفهوم النصّ**، ص 79. والحقّ، أنّ مسألة المكيّ والمدنيّ تحتاج إلى دراسات متخصّصة ومعمّقة تأخذ في الاعتبار ما انتهى إليه الاستشراق الألمانيّ والفرنسيّ من نتائج في هذا الباب، وتعمل على تجاوزها وتطويرها، وربّما نقضها من الأساس.

وفي هذا الاتّجاه، يرى عبد المجيد الشرفي عدم الفصل بين الآيات المكيّة والمدنيّة. انظر: **تحديث الفكر الإسلامي**، الدار البيضاء، ط 1، 1998، ص 95

103 الواحدي، **أسباب النزول**، ص 299. وانظر الخبر نفسه عند: السيوطي، **لباب النقول**، ص 278

فالذي عليه المفسّرون وعلماء القرآن أنّ سورة [**الإسراء 17**] مكّيّة، ولا يكادون يستثنون منها سوى آية واحدة اعتبروها مدنيّة[104]. غير أنّ خبر سبب النزول يشير بوضوح إلى أحداث حصلت بعد الهجرة؛ فالرسول وقت نزول الآية كان في المدينة، والسائل له هم اليهود.

ولئن عدّ القدامى سورة [**السجدة 32**] مكّيّة بالإجماع[105]، فإنّ الخبر المتعلّق بالآية (16) منها يؤكّد أنّ نزولها حصل في السنة التاسعة هجريّاً بمناسبة غزوة تبوك[106]. والشواهد على هذا التداخل بين المكّيّ والمدنيّ عديدة جدّاً[107].

وقد أنكر بعض المفسّرين هذه الظاهرة، وبذلك طعنوا في بعض أسباب النزول، ومن الأمثلة الدالّة على هذا الموقف ما قيل في سبب نزول الآية (131) من سورة [**طه 20**]، ذلك أنّ «سبب نزول هذه الآية ما رواه أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نزل ضيف برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسلني عليه السلام إلى رجل من اليهود، وقال: قل له: يقول لك محمّد: نزل بنا ضيف، ولم يُلْفَ عندنا بعضُ الذي يصلحه، فَبِعْنِي كذا وكذا من الدقيق، أو أَسْلِفْنِي إلى هلال رجب، فقال: لا، إلّا برهن، قال: فرجعتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، فقال: والله إنّي لأمين في السماء، أمين في الأرض، ولو أسلفني، أو باعني، لأدّيتُ إليه، اذهب بدرعي إليه...»[108]. ولكنّ أبا محمّد بن عطيّة (ت 543هـ) ردّ هذا الخبر قائلاً: «**وهذا معترض أن يكون سبباً**؛ لأنّ السورة مكّيّة والقصّة المذكورة مدنيّة في آخر عمر النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ لأنّه مات ودرعه مرهونة عند يهوديّ بهذه القصّة التي ذُكِرت...»[109].

وفي السياق نفسه، نبّه الحسين بن الفضل (ت 282هـ) على فساد الخبر المتعلّق بسبب نزول الآية (113) من سورة [**التوبة 9**]، باعتبار أنّ الخبر يشير إلى رغبة الرسول في الاستغفار لعمّه أبي طالب، وقد حضرتْ وفاتُه في مكّة[110]. ولكن ما قرّره المفسّرون أنّ سورة [**التوبة 9**] مدنيّة، وليس فيها من المكّيّ إلا الآيتان الأخيرتان[111]؛ ولذلك قال الحسين بن الفضل عن خبر سبب نزول الآية: «وهذا بعيد؛ لأنّ السورة من آخر ما نزل من القرآن، ومات أبو طالب في عنفوان الإسلام والنبيّصلى الله عليه وسلم في مكّة»[112].

---

104 هي تحديداً الآية 73. انظر: الزركشي، **البرهان**، ج I، ص 201

105 انظر: **المصدر نفسه**، ج I، ص 202

106 انظر: الواحدي، **أسباب النزول**، ص 362

107 راجع: **المصدر نفسه**، الصفحات 378، 389، 390، 474، 489، 500

108 **تفسير القرطبي**، ج XI، ص 174

109 **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

110 انظر: السيوطي، **لباب النقول**، ص 244

111 انظر: الزركشي، **البرهان**، ج I، ص 202

112 **تفسير القرطبي**، ج VIII، ص 173

8. إهمال سبب النزول:

من المفارقات أن تتضمّن مؤلَّفات علم أسباب النزول أخباراً ليس فيها ذكر لأسباب نزول؛ إذ يكتفي عالم القرآن، ههنا، إمّا بتفسير الآية، وإمّا بتعيين من نزلت فيه دون الإشارة إلى السبب المتعلّق بها، والشواهد على هذه الخاصّيّة التي طبعت بعض الأخبار عديدة، فقد اكتفى الواحدي بالقول في شأن الآية (61) من سورة [**القصص 28**]: «نزلت في عليّ وحمزة وأبي جهل»[113]. وفي رواية أخرى، أنّ الآية «نزلت في عمّار والوليد بن المغيرة»[114]، وفي رواية ثالثة «نزلت في النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبي جهل»[115]، فنحن لم نقف، على الرغم من تعدّد الروايات، على سبب نزول الآية بالمعنى الاصطلاحيّ لكلمة «سبب»، ولا ندري، بالضبط، لِمَ نزلت الآية على عليّ، وحمزة، وأبي جهل، مثلاً؟

لقد خطر في بالنا، إزاء هذه الظاهرة، احتمالٌ مفاده شيوع سبب النزول عند كتّاب السيرة، أو المحدّثين، أو المفسّرين، ممّا لا يستدعي، دوماً إثباته، ولكنّ نظرنا في غير كتاب الواحدي أسقط هذا الاحتمال؛ فقد ذهب الطبري[116]، قبل الواحدي، والسيوطي[117] من بعده، إلى الموقف نفسه؛ إذ اكتفيا بتعيين من نزلت فيه الآية.

والذي نعتقد صوابه أنّ هذا الخبر وغيره ممّا كان على شاكلته[118] لا يمكن اعتباره، عند الفحص، محتوياً، حقيقةً، على سبب النزول؛ بل إنّ تعيين من نزلت فيه الآية، دون تجاوزه إلى السبب، مندرج، حسب رأينا، في التفسير الموجّه لآي القرآن؛ ذلك أنّنا متى قبلنا بهذه الخاصّيّة في الخبر، فإنّنا، عندئذٍ، سنفتح الباب على مصراعيه لاختلاق عدد لانهائيّ من أخبار أسباب النزول.

والحاصل من ذلك كلّه أنّ قسماً مهمّاً من أخبار أسباب النزول قد اختلقه المفسّرون وعلماء القرآن، وأسندوا روايته، في الغالب، إلى أعلام معروفين بوّأهم الوجدان الإسلاميّ منزلة مرموقة. ولعلّ ما يسّر للرواة وللمفسّرين صناعة هذه الأخبار ما تميّز به نصّ المصحف من نزعة إلى التعميم في خطابه، ومن احتفاء بالمجاز وبالرمز عموماً. فهذا النصّ يكتفي بالتلميح إلى بعض الوقائع، أو الإشارة إلى بعض الأشخاص،

113 **أسباب النزول**، ص 349

114 **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

115 **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

116 انظر: **تفسير الطبري**، ج X، ص ص 92- 93

117 انظر: السيوطي، **لباب النقول**، ص 333

118 راجع مثلاً: **تفسير الطبري**، ج VI، ص ص230- 231، وص ص 446- 447. و**تفسير الرازي**، ج XXXI، ص 146. والسيوطي، **لباب النقول**، ص 475

دون تعلّق بالدقائق والتفاصيل[119]. وقد استغلّ القدامى، منذ وقت مبكّر، هذه الخصائص النصّيّة لينسجوا حول الآيات كمّاً من الأخبار الموضوعة عكستْ فهمهم لنصّ المصحف، وكشفت عن طريقة تعاملهم معه، وعبّرت عن انتظاراتهم منه[120]. وحتّى في الحالات التي يكون فيها للأخبار أساس تاريخيّ حقيقيّ، فإنّ المفسّرين لم يلتزموا بنقل ما هو حاصل في التاريخ، وإنّما تجاوزوه إلى اصطناع نصوص فنّيّة توافرت فيها مقوّمات القصّ ومراسمه. ومتى استثنينا فخر الدين الرازي في تفسيره، فإنّ جلّ المفسّرين وعلماء القرآن لم يتعاملوا مع مثل هذه الأخبار تعاملاً نقديّاً ينمّ عن استقصاء لحقيقة أسباب النزول، ولا شيء يفسّر هذا الموقف سوى تعويل القدامى على ثقافة نقليّة تثِق بما رُوِيَ عن الأجيال الإسلاميّة الأولى، أو ما نُسِبَ إليها من أقوال وآراء، وعندئذٍ تعذّرت مساءلة أخبار أسباب النزول، فقُبِلَتْ على الرغم ممّا شَابَهَا من اضطراب، وتناقض، واختلاق.

119 يقول محمّد الطالبي في هذا السياق:

»Aucune date précise dans le Coran ,mais souvent des allusions à des événements, où à des situations qui avaient motivé la révélation. D'où toute une science qui s'est attachée, assez tardivement, à déterminer les circonstances de la révélation (**asbāb al-nuzūl**)». ***Quelle clé pour lire le Coran?***, p. 25.

120 إنّ اختلاق أسباب نزول الآيات لم يُفض، دوماً، في رأي بعض الدارسين المعاصرين، إلى نتائج مقنعة؛ إذ اتُّخِذَت تلك الأسباب وسيلة إلى معرفة تاريخ الوحي، ومن ثمّ محاولة ترتيب سور المصحف بحسب تاريخ نزولها. راجع في ذلك:

F. E. Peters, ***The quest of the historical Muḥammad,*** p. 301.

المصادر والمراجع

I. المصادر:

- البخاري، (ت 256هـ/ 869م)، **الجامع الصحيح**، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي وآخرَيْن، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، (د.ت).
- التوحيدي، أبو حيّان، (ت 414هـ/ 1023م)، **الهوامل والشوامل**، تحقيق أحمد أمين والسيّد أحمد صقر، القاهرة، ط1، 1951م.
- الرازي، فخر الدين، (ت 606هـ/ 1209م):
- **التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط3، (د.ت).
- **المحصول من علم أصول الفقه**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 1، 1988م.
- الزركشي، بدر الدين، (ت 794هـ/ 1391م)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، ، دار الجيل، بيروت، ط1، 1988م.
- السيوطي، جلال الدين، (ت 911هـ/ 15025م)، **لباب النقول في أسباب النزول**، تحقيق حمزة النشرتي وآخرَيْن، المكتبة القيّمة، القاهرة، (د.ت).
- الطبرسي، الفضل بن حسن، (ت 548هـ/ 1153م)، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1997م.
- الطبري، أبو جعفر محمّد بن جرير، (ت 310هـ/ 922م)، **جامع البيان**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط3، 1999م. 1999.
- القرطبي، (ت 671هـ/ 1272م)، **الجامع لأحكام القرآن**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط5، 1996م.
- الواحدي النيسابوري، (ت 468هـ/ 1075م)، **أسباب نزول القرآن**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1 1998م.

II. المراجع:

1. المراجع العربيّة والمترجمة:

أركون، محمّد:

- **الإسلام والتاريخ والحداثة**، ضمن مجّلة **الوحدة** المغربيّة، العدد 52، كانون الثاني/ يناير 1989م، ص ص 17- 26
- حوار بعنوان: إعادة الاعتبار إلى الفكر الدينيّ، ضمن مجلّة **الكرمل**، العدد 34، سنة 1989م، ص ص 4- 40
- **الفكر الإسلاميّ: قراءة علميّة**، تعريب هاشم صالح، مركز الإنماء القوميّ، بيروت، 1987م.
- **الفكر الإسلاميّ: نقد واجتهاد**، تعريب هاشم صالح، دار الساقي، لندن، ط1، 1990م.

أومليل، علي، **في شرعيّة الاختلاف**، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1993م.

جعيط، هشام، **الوحي والقرآن والنبوّة**، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1999م.

أبو زيد، نصر حامد، **مفهوم النصّ: دراسة في علوم القرآن**، المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت/ الدار البيضاء، ط2، 1994م.

السلّيني الراضوي، نائلة، **تاريخيّة التفسير القرآني**، المركز الثقافيّ العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط1، 2002م.

الشرفي، عبد المجيد:

- **الإسلام بين الرسالة والتاريخ**، دار الطليعة، بيروت، ط1.
- **تحديث الفكر الإسلامي**، الدار البيضاء، ط1، 1998م.
- **لبنات**، دار الجنوب للنشر، تونس، ط1، 1994م.

مروّة، حسين، **النزعات الماديّة في الفلسفة العربيّة الإسلاميّة**، دار الفارابي، بيروت، ط6، 1988م.

2. المراجع الأجنبيّة:

- Arkoun (Mohamed),***The notion of revelation: From Ahl al-Kitāb to the Societies of the Book,in***: Die Welt des Islams, n° 23, 1988, pp. 62-89.
- Blachère (Régis), ***Le Coran***, éd., Maisonneuve et Larose, Paris, 1980.
- Blot (Denis), «Traditions locales et processus d'identification: L'usage de l'histoire dans la constitution d'un besoin imaginaire», *in*: ***Itinéraires de l'imaginaire***, L'Harmattan, Paris, 1999.
- Chabbi (Jacqueline), ***Le Seigneur des tribus: l'Islam de Mahomet***, ed. Noésis, Paris, 1997.
- Peters (F. E.), ***The quest of the historical Muḥammad***, *in*: ***International of Journal of Middle East Studies***, vol, 23, August 1991, pp. 291-315.
- Powers (David S), ***On the abrogation of the bequest verses***, *in*: ARABICA, Tome 29, Fascicule 3, 1982, pp. 246-295.
- Rippin (Andrew), «***The function of asbāb al-nuzūl in Qur'anic exegesis***» in: B.S.O.A.S., vol, 51, n° 1, 1988, pp. 1-20.
- Talbi (Mohamed), «***Quelle clé pour lire le Coran***?», *in*: ***Réflexions sur le Coran***, éd. Seghers, Paris, 1989.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016